دكتور
محمد كمال شبانة

الدويلات الإسلامية فى المغرب

دراسة تاريخية حضارية



الدويلات الإسلامية
فى المغرب

ى الأدارسة والرستميون بالجزء الغربى من الشمال الإفريقى بقيت
سمة لما تبقى من الشمال الإفريقى، وعليه أضحت طرابلس وتونس
واحدة فى معظم فترات التاريخ، وكان يطلق على هذه الإمارة
ت القيروان عاصمة لها، فهكذا كان الحال فى عهد كل من الأغالبة
زيرى والموحدين وبنى حفص.

س يُعَيِّن من طرفه واليًا على طرابلس، وقد بلغ الاهتمام بطرابلس إلى
ا كانوا يختارون من خيرة الرجال، كما كانوا يختارون فى عهد الأغالبة

الدُّوَيْـلات الإســلامية

فـى المغـرب

دكتـور

محمد كمـال شبانة

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

بجامعات مصر والمغرب والسعودية





تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فقد آليت على نفسى أن ألحق بمؤلفى عن الأندلس أن أشفعه بمؤلف عن المغرب، يحمل عنوان "**الدويلات الإسلامية فى المغرب العربى**" لما بين هذه الأقطار العربية وبين الأندلس من صلات وثيقة، ترجع إلى أقدم العصور، خاصة العصر الإسلامى الوسيط.

تلك العلائق التى تعود إلى يوم أن كان المغرب الأقصى نقطة الانطلاق للفتح العربى لبلاد الأندلس، بزعامة موسى بن نصير وقيادة طارق بن زياد، ثم ما تلا ذلك من صلات سياسية واقتصادية واجتماعية وما واكب من أحداث حربية، لمسنا من خلالها النجدات المغربية تصد الهجمات الإسبانية ضد المدن الإسلامية فى شرق شبه الجزيرة الأيبيرية وغربها، فيما يسمى فى تاريخ إسبانيا المسلمة بـ "**حروب الاسترداد الإسبانية**"، والتى انتهت بسقوط مملكة غرناطة بالتسليم يوم ٢ يناير ١٤٩٢م.

تلك الحروب التى أدت يومًا إلى استنجاد المسلمين فى الأندلس بدولة

المرابطين فى المغرب، وكانت النجدة من طرف زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين، الذى عبرت جيوشه إلى الأندلس استجابة لنداء الأندلسيين، وما كان من انتصارات مرابطية على الإسبان، وما أعقب ذلك من استقرار الأمن والنظام فى بلاد الأندلس.

ولقد بلغت تداعيات الأحداث الأندلسية ذروتها على يد **"ملوك الطوائف"** الذين أدت خلافاتهم الشخصية ومطامعهم إلى تمزيق الأندلس إلى أشلاء يندى لها الجبين، الأمر الذى دعا يوسف بن تاشفين إلى عبور البحر لتخليص الأندلس من شرور ملوك الطوائف، وما أعقب انتصاراته عليهم واحدًا تلو الآخر إلى ضم الأندلس إلى مملكة المرابطين فى المغرب، كما ورث الموحدون بعد المرابطين توحيد القطرين المغربى والأندلسى.

جدير بالذكر فى نهاية المطاف أن ننوه بارتباط تاريخ المغرب والأندلس الذى دام بعد الموحدين فى ظل الدولة المرينية بعدئذ، وما واكب ذلك من السيطرة المراكشية على معظم دول المغرب العربى، ثم نشوء دويلات إسلامية على مر العصور الإسلامية فى تلك الأقطار، مثل دولة بنى عبد الواد ودولة الحفصيين والرستميين والأغالبة، حتى حسمت الدولة الفاطمية فى "إفريقية" بتونس الأمر وذلك بسيطرتها التاريخية، وقيام دولتها التى وسعت المغرب كله غربًا وشرقًا، وحتى امتد نفوذها إلى مصر فبلاد الشام والحجاز.

فإلى الباحثين والقرّاء أقدم هذا المؤلف، فى ثوب موجز غير مخل ولا ممل، أملا أن يجد فيه طلاب التاريخ المغربى والأندلسى ما عساهم أن يريدوا الوقوف عليه فى تلك الفترات من التاريخ الإسلامى.

والله خير موفق ومعين،

أ.د/ محمد كمال شبانة

١/ ١/ ٢٠٠٧م

المحتويات

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الأول

الفتح الإسلامى للمغرب

عزم عمرو بن العاص على فتح الشمال الإفريقى تأمينًا لفتح مصر، فوصلت جيوشه إلى حدود طرابلس، وتلاه عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، فغزا إفريقية (تونس) حيث هزم القائد الرومانى جريجوار، إلا أنه لم يفتحها، بل اكتفى بأخذ الغنائم الكثيرة وقفل راجعًا، وتوقفت عملية الفتوح عندئذ، تبعًا لما كان يدور فى العالم الإسلامى يومئذ من أحداث.

إن الفتح الحقيقى للمغرب يبدأ عام ٥٠هـ (٦٧٠م) فى عهد معاوية بن أبى سفيان، وقد سلك قواد الفتح فى تلك المناطق أسلوبين: أسلوب القوة أحيانًا، وأسلوب السياسة أحيانًا، فمنهم من كانت قوته تغلب سياسته، ومنهم من كان بالعكس، ولكن سياسة اللين كانت عاملًا متفوقًا فى جعل الفتح العربى أكثر إنتاجًا وأثبت قدمًا.

لقد قلد معاوية ولاية إفريقية للقائد عقبة بن نافع الفهرى عام ٥٠هـ (٦٧٠م)، وهو أحد رجال عمرو بن العاص البارزين فى ميادين القتال، إذا يمتاز بقوة البأس والحماس الدينى المنقطع النظير، فهو ممن تغلب شجاعتهم الناحية السياسية، حتى حاز لقب" قاهر الروم والبربر" ، فقد فكر عقبة فى هذا أنه لإنجاح الغزو للشمال الإفريقى لا بد من إنشاء قواعد حربية فى بعض المناطق الإستراتيجية، فأقام لذلك مدينة القيروان بعيدًا عن البحر، حيث إمدادات الروم البحرية، ولقربها من الصحراء حيث تصعب محاصرتها، وهكذا اندفع بجيشه غازيًا تلك البلاد غربًا حتى بلغ مدينة سبتة، بعد أن قاتل فى طريقه جيوش الروم والبربر التى اعترضته، وأخيرًا رجع إلى قاعدته فى"القيروان" .

ثم حدث أن عزل معاوية عقبة لسبب أو لآخر، وأحل محله القائد" أبا المهاجر دينار" وهو رجل يختلف فى تفكيره عن عقبة، حيث كان يُغَلّب الناحية السياسية على الناحية الحربية، فهادن البربر، واستمالهم إليه لكى يضرب بهم جيوش الروم عدوه الرئيسى، وفى ذلك بُعْد نظر وكياسة؛ لأن جيوش البربر شديدة المراس، فوق أنها عظيمة الأعداد والعدد، فجعل همه أن يقنع البربر بأنهم أقرب إلى العرب من الروم وأن العرب لا يقصدونهم بالقتال، وإنما يقصدون الروم، ولقد أثمرت سياسته هذه إذ استطاع أن يضم إليه زعيم بربر البرانس المسمى" كسيلة"، والذى اعتنق هو وقبيلته" أوربة" الإسلام، ثم تزامل أبو المهاجر وكسيلة فى قيادة جيشيهما حتى فتحا مدينة" تلمسان".

ولقد حدث أن تغيرت الأحداث فى الشرق، فقد عاد "عقبة بن نافع" إلى قاعدته القيروان، وهو أشد حماسًا للقتال، فقد كان يرى أن البربر قوم غدر، ولا تجدى فيهم الأساليب السياسية، وعليه فقد سلك تجاههم سبيل العنف والقهر، وقبض على "كسيلة"، ولكن" كسيلة" يفر من سبحنه، ويسرع عقبة غازيًا للشمال الإفريقى منطلقًا فى اندفاعه، حتى وطئت جيوشه أرض السوس الأدنى، ويقف بفرسه على ساحل المحيط الأطلنطى حتى وصل الماء إلى ركابه، ثم انتضى سيفه وهزه قائلًا: "اللهم فاشهد، أنى لو كنت أعلم أن وراء هذا البحر أرضًا لخضته غازيًا فى سبيلك"، ويتملك الغرور القائد، ولا يحتاط لنفسه ولا يحذر، فقد عاد إلى القيروان فى فرقة صغيرة من جيشه، فتصدى له الروم جنوب تونس، وحاصره "كسيلة" بجموع من البربر من خلفه، فى معركة "تناهودة" حيث قتله، وحيث فنى جيش عقبة عن آخره، كما استشهد القائد أبو المهاجر إلى جواره.

هكذا كانت المأساة... فتولى القيادة للجيش الإسلامى" زهير بن قيس" الذى قضى نحبه هو الآخر على يد البربر، وجاء بعدئذ" حسان بن النعمان" الغسانى، الذى ولاه عبد الملك بن مروان، فسلك مسلك أبى المهاجر نحو البربر سياسة

ولينًا، واستمال هؤلاء ليضرب بهم الروم، حتى أمن جانب بربر البرانس، فزحف بهم نحو قرطاجنة، فقضى على حاميتها من الروم، حيث كانت شاطئًا حربيًّا للسفن والأساطيل الرومية، ولكن خطرًا آخر اعترض حسان ولم يكن فى حسبانه، وهو عدو صعب المراس، تمثل فى زعيمة بربر البتر المسماة "الكاهنة"، وهى امرأة ذات نفوذ سياسى وروحى عند قومها، فارتد حسان إلى برقة ولكن خطأ ارتكبته "الكاهنة" كان عاملًا فى انتصار المسلمين، ذلك بأنها صوّرت لقومها أن العرب إنما جاءوا إلى هذه البلاد طمعًا فى خيراتها وأقواتها، فلو أحرقت الزروع والثمار لما كان لهم مقام عندنا، وعليه فقد انطلقت جيوشها تخرب العمران، وتقضى على الأخضر واليابس، فلجأ بربر البرانس إلى حسان يستعدونه على هذه المرأة الحمقاء...، فكانت فرصة سانحة استغلها حسان فى الانتصار على" الكاهنة" ، والقضاء عليها وعلى جيشها.

ثم يأتى القائد"موسى بن نصير" الذى وجد البلاد قد نظمها حسان، فسلك سبيله فى العمران، وطبق سياسة عادلة نحو البربر، فسوى بينهم وبين العرب فى الحقوق والواجبات، وضمهم إلى جيشه، حتى صار الجيش الإسلامى ـ الذى غزا إسبانيا ـ يضم أغلبية من القادة والأفراد والبرابرة.

لقد فتح العرب الشمال الأفريقى فتحًا معنويًّا له صفة الدوام فقد حلّت لغة الفاتح وعقيدته وتقاليده محل لغة وعقيدة وتقاليد أهل تلك البلاد، واعتنق البربر الإسلام، وأضحوا عنصرًا طيبًا وصالحًا إلى جانب المسلمين الفاتحين، وتقبلوا اللغة العربية والعادات الإسلامية.

الأديان فى شمال إفريقيا قبل الفتح الإسلامى

كان البربر عمومًا يدينون بأديان مختلفة، فالمسيحية فى المدن الساحلية؛ حيث كان الروم يستولون على تلك المناطق، واليهودية داخل البلاد؛ حيث ينتشر اليهود برحلاتهم التجارية كما جرت عادتهم فى العالم فى كل زمان، كما كانت عبادة الأوثان قائمة لدى البربر، أو عبادة الكائنات والظواهر الطبيعية بين كثير منهم، وجاء الإسلام فدخل فيه غالبية البربر، ويرجع هذا إلى ما يأتى:

فالمسيحية كانت يومئذ قد ضعف نفوذها فى الغرب، فقد حاربها "الفندال"، الذين عبروا من إسبانيا إلى الشمال الإفريقى، فخربوا الكنائس المسيحية وعاثوا فيها فسادا، يضاف إلى ذلك ما كان من تناحر بين المذاهب المسيحية وتكفير بعضها بعضًا (الأرثوذكس ـ الكاثوليك ـ البروتستانت)، وهذا جعل البربر لا يطمئنون لهذه الديانة، ولا يثقون فيها، الأمر الذى هيأ نفوسهم لتقبل الإسلام، دين السماحة والتعاليم البسيطة الواضحة.

أما اليهودية فقد كانت ديانة البرابرة البتر، وهؤلاء كانوا قلة بزعامة" الكاهنة" التى ألمحنا إلى دورها الفاشل تجاه الجيش الإسلامى، وعليه فإن هذه القلة اليهودية لم يكن لديها الحماس لنشر عقيدتها بقدر ما كان اهتمامها ـ كعادة اليهود دائمًا ـ باستثمار الأموال، فبقيت هذه الفئة على حالها دون انتشار، ولذلك لم يسلم هؤلاء اليهود فى الشمال الإفريقى، وإنما بقوا على حالهم بعد الفتح.

أما الوثنية فلم يقيض لها البقاء أمام الإسلام وتعاليمه السهلة السمحة، بالإضافة إلى أن الإسلام يحترم الديانات السماوية، ولكن يحارب الوثنية دون هوادة، لذلك نجد عبدة الأوثان قد انجذبوا إلى الإسلام نتيجة تلك العوامل.

سياسة العرب فى شمال إفريقيا

اتخذ العرب فى شمال إفريقيا سياسة اللين فى تعاملهم مع البربر، بعد أن خبروا طباعهم، ودرسوا أخلاقهم، واستمالوهم إلى الدين الإسلامى، بواسطة الفقهاء الذين كانوا ينتشرون بين المناطق السكانية، فقد فعل هذا حسان بن النعمان وكذا موسى بن نصير، والخليفة عمر بن عبد العزيز، الذى أرسل عشرة من كبار التابعين إلى البربر ليفقهوهم فى الدين، فانتشر الإسلام بين هؤلاء انتشارًا عظيمًا لا سيما وأن الدين الجديد قد وافق بساطة البربر، ولبعده عن المجادلات والمناقشات، وإقراره مبدئيًّا عقيدة التوحيد التى نادت بها الأديان السماوية، وهكذا نرى البربرى ينصاع لعبادة إله واحد، ثم من السهل إقراره برسالة محمد ﷺ فى الوقت نفسه.

أما من جهة اللغة، فقد سايرت اللغة العربية الدين الجديد أينما حلَّ وسار، إذ لا بد للمسلم من أن يتلو القرآن وأن يؤدى الصلوات الخمس بالعربية، وهذا هو الدافع الأساسى لتعلمها.

يضاف إلى هذا ما هو مقرر فى التاريخ من أن المغلوب مضطر إلى أن يقلد لغة الغالب إن عاجلًا أو آجلًا، ولا ننسى كذلك أن الخليفة عبد الملك بن مروان قد عرّب دواوين الحكومة يومئذ، مما اضطر الموظفين حينئذ إلى أن تكون مكاتباتهم ومعاملاتهم مع الجماهير باللغة العربية، بعد أن يكونوا هم أنفسهم قد درسوا هذه اللغة، فهكذا كانت تنتشر العربية تبعًا لانتشار الدين ومصلحة القوم.

وأما من ناحية التقاليد والعادات العربية، فقد كان من السهل أن تنتشر بين الشعب البربرى كغيره من الشعوب التى فتحها الإسلام، وذلك تبعًا لمبدأ المساواة الذى نادى به الإسلام، وبمقتضى القيام على الحكم، والمخالطة والمعاشرة، فهذا مما يسهّل عملية تشرب البربر لعادات العرب وتقاليدهم.

لقد كان من نتيجة هذه الفتح الإسلامى للشمال الإفريقى أن انحاز البربر إلى العرب فى صفاتهم، بل لقد تحمسوا للانضمام إلى جيوش القتال وخاصة... فى الأندلس، وقد كان طارق بن زياد قائد الجيش يومئذ بربريًّا، بالإضافة إلى أن الجيش نفسه فى الفتح الأندلسى كان عبارة عن ١٢.٠٠٠ ألف مقاتل، لم يكن من بينهم من الفرسان سوى ٥٠٠ فارس عربى.

فهكذا لم ينقضِ القرن الأول الهجرى حتى كان الشعب البربرى عربى اللغة والعادات، وهذا محل الدهشة عند المؤرخين الأوربيين والعرب على السواء.

الفصل الثانى

المغرب الأقصى (مراكش)

دولة الأدارسة

(١٧٢ـ٣٧٥م/ ٧٨٨ـ٩٨٥م)

قام العلويون فى عهد الخليفة العباسى الهادى (١٦٩ـ١٧٠هـ) بثورة فى المدينة ضد العباسيين بقيادة الحسين بن على بن الحسين بن الحسن، فبعث إليهم الخليفة بجيش كثيف عند" فخ" بين مكة والمدينة حيث هزمهم شر هزيمة، ففر بعض قواد العلويين إلى أنحاء شتى، وكان من بين هؤلاء إدريس بن عبد الله الذى تمكّن من اللجوء إلى المغرب مارًّا بمصر، وحيث نزل على قبيلة أوربة البربرية من البرانس، واستجار إدريس بهذه القبيلة فأجارته، وجميع البربر على دعوته، فاجتمعت حوله من القبائل البربرية كل زرعه ولواته وغمات غماره ونفره ومكناسه وغيرهم، وبايعوه على السمع والطاعة، وحيث تم له الملك والسلطان، واتخذ مدينة وليلى الروانية (على بُعد ٢٥ كم من مكناس) عاصمة له فوق مرتفع جبلى عام ١٧٢هـ ، ثم أصبحت العاصمة فاس فى عهد الخليفة محمد بن إدريس عام ١٩٢هـ.

ويرى المؤرخون أن دولة الأدارسة هى أول دولة شيعية انسلخت فى المغرب الأقصى عن الخلافة العباسية فى المشرق، وقد فرضت حكمها على كلّ من المغرب الأقصى (مراكش) وغرب الجزائر، وبفضل هذه الدولة انتشر الإسلام فى مناطق شتى من جنوب المغرب، حيث شملت الدولة بلاد السوس، كما انتشرت الحضارة الإسلامية فى ربوع هذه المناطق بفضل الأدارسة، أما الدولة الثانية التى انسلخت

كذلك بالمغرب الأوسط فهى دولة الرستميين (١٦٠-٢٩٦هـ) وهى دولة خارجية كما سيأتى ذكرها، بيد أن أول دولة استقلت عن العباسيين على مستوى العالم الإسلامى فهى دولة بنى أمية فى الأندلس(١٣٨ـ٤٢٢هـ) بزعامة عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) متخذًا من قرطبة عاصمة لها.

وتجدر الإشارة بأن الأدارسة كانوا يلقبون بلقب"الإمام"[(١)]، وأن هذه الإمامة انتقلت إليهم بوصاية محمد النفس الزكية لأخيه إدريس الأكبر، على اعتبار أن محمدًا هذا انعقدت له الإمامة من طرف بنى العباس، ولهذا السبب نلاحظ أن مالك بن أنس وأبا حنيفة النعمان كانا يرجحان إمامة "النفس الزكية" على إمامة أبى جعفر المنصور، ويريان أن إمامته قد انعقدت له قبل أبى جعفر هذا.

كذلك يذكر بعض المؤرخين أن الدولة العلوية الإدريسية كانت تشجع المعتزلة، وحيث كانت قبيلة أوربة تدين بالاعتزال، كما أن عبد الله الكامل والد الإمام إدريس كان يعتبر فى الطبقة الثالثة من طبقات المعتزلة[(٢)].

ولقد كانت بين الأدارسة وأهل مصر مكاتبات، ففى رسالة للإمام إدريس الأول للمصريين يشيد فيها بفضلهم عليه، ويلفت أنظارهم إلى فضائل أهل البيت النبوى الذى ينتمى إليه، ويعدد تضحياتهم الغالية التى بذلوها فى سبيل حقهم الشرعى الموروث عن الرسول، ويطلب إليهم فى آخر الرسالة أن يساندوه ويبايعوه[(٣)].

وهكذا نرى أن الأدارسة كانوا حريصين على الاتصال يومئذ ببقية أقطار العالم الإسلامى، وليس العكس كما يزعم البعض، كما أنهم كانوا يتوقون إلى توحيد الأمة الإسلامية تحت زعامتهم، مستندين فى هذا إلى انحدارهم من نسل البيت النبوى، وأحقيتهم لذلك فى الخلافة.

---

(١) ابن خلدون "مقدمة" ص ٢٢٨.

(٢) عبد الحى الكتانى فى "التراتيب الإدارية" ج ٩ ص ٢٠٦.

(٣) انظر وثيقة مخطوطة بذلك فى الخزانة العامة بالرباط.

هذا وبالرغم من أن العباسيين كانوا يخشون من اتساع نفوذ الأدارسة بإقامتهم دولة الأغالبة فى تونس فى مواجهتهم، إلا أن الأدارسة تمكنوا من كسب صداقة الأغالبة واستمالتهم، يشهد لذلك ما ذكره ابن الخطيب بقوله:

"وكتب إدريس بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن على بن أبى طالب، القائم بالمغرب، إلى إبراهيم بن الأغلب، يستكفيه عن ناحيته، ويذكّره بقرابته من رسول الله ﷺ، فأجابه عن كتابه وأودعه، ولم تجر بينهما حرب" [(١)].

جدير بالذكر، أنه كانت هناك دولتان قويتان تقفان بالمرصاد لدولة الأدارسة، وناصباها العداء، وهما الدولة الفاطمية فى تونس التى ورثت ملكهم من بعد، ودولة الأمويين فى الأندلس، وكلنا الدولتين المتجاورتين تنتسب كذلك إلى البيت النبوى الشريف، وتنازعتا فى هذا الانتساب، الأمر الذى كان له نصيب فى ضعف الدولة الإدريسية على مر الأيام، بالإضافة إلى تلك الخلافات التى كانت تنتسب للأمراء بالمناطق التى تحت أيديهم، منذ عهد محمد بن إدريس، مما أدى إلى سقوط الدولة فى النهاية، عام ٣٧٥/ ٩٨٥م.

* * *

(١) أعمال الأعلام (القسم الخاص بالمغرب) ص ١٤، ١٥.

ملوك الأدارسة

إدريس الأول بن على بن عبد الله بن الحسين بن الحسن	١٧٢هـ/ ٧٨٨م
إدريس الثانى بن إدريس الأول	١٧٧هـ/ ٧٩٣م
محمد بن إدريس الثانى	٢١٣هـ/ ٨٢٨م
على الأول بن محمد	٢٢١هـ/ ٨٣٦م
يحيى الأول بن محمد	٢٣٤هـ/ ٨٤٩م
يحيى الثانى بن يحيى	؟
على الثانى بن عمر بن إدريس الثانى	؟
يحيى الثالث بن قاسم	؟
يحيى الرابع بن إدريس بن عمر	٢٩٢هـ/ ٩٠٤م
الحسن بن قاسم	٣١٠هـ/ ٩٢٢م
أمراء متناثرون	؟هـ/ ٩٨٥م

فاس عاصمة الأدارسة

إن مدينة فاس التاريخية فى المغرب العربى لهى واحدة من درر المدن الإسلامية الثقافية، ولا يضاهى دورها فى المغرب الإسلامى سوى القيروان، وكما جاء فى "السالك" للعمرى: "أنها تشبه دمشق وغرناطة، وأهلها يشبهون أهل الإسكندرية فى المحافظة على علوم الشريعة، وتغيير المنكر، والقيام بالناموس".

ويعزز هذا القول ما جاء عند صاحب كتاب "جنى زهرة الآس فى أخبار فاس" من قوله: "قال الحكماء لا تستوطن إلا بلدًا فيه سلطان حاضر، وطبيب ماهر، ونهر جارٍ، وقاض عادل، وعالم عامل، وسوق قائم... ".

ويردف صاحب هذا الكتاب قوله ذاك بوصف أبناء فاس: "فلاعتداله اعتدال أهله، فسلموا من شقرة الروم، وسواد الحبش، وغلظ الترك، وجفاء أهل الجبال، ودمامة أهل الصين، وكما اعتدلوا فى الخلق اعتدلوا فى الفطنة والذكاء والعلم...".

فلهذه القيمة التاريخية للمدينة، وحفاظًا على تراثها العربى الأصيل نرى أن فاسًا كانت نموذج المدينة الإسلامية فى مهرجان العالم الإسلامى الذى عقد فى لندن فى منتصف السبعينيات، وقررت منظمة اليونسكو المشاركة فى إنقاذها كجزء من التراث الإنسانى، ورصدت من أجل إنقاذها ٢٠ مليار دولار، كما وجهت نداء عالميًا يلح فى العمل على إنقاذها.

والآن.. ماذا يقول التاريخ فى صدد هذه المدينة تأسيسًا وتخطيطًا؟.

يعزو بعض المؤرخين تأسيس مدينة فاس إلى إدريس الثانى (١٩٢هـ/ ٨٠٨م) ابن إدريس الأول (١٧٢هـ/ ٧٧٥م) اعتمادًا على روايات قديمة، ولعل أول من رددها من جغرافى المشرق ابن حوقل فى القرن العاشر [(١)] الميلادى، ثم توالى ترديد هذه رواية من لدن الجغرافيين، مثل ما جاء عند أبى عبيد البكرى الأندلسى حين أورد وصفًا شاملًا لمدينة فاس، فقال: "إن هذه المدينة تتكون من مدينتين مختلفتين، ويحيط بكل منهما أسوار، كما يفصلهما نهر شديد التيار، وهو يسمى إحداهما ضفة القرويين والثانية ضفة الأندلسيين، وتقع الأولى إلى الغرب من الثانية"، كما يقرر فى وصفه هذا أن المدينة الواقعة على ضفة الأندلسيين قد تأسست عام ١٩٢هـ/ ٨٠٨م، وأن مدينة ضفة القرويين قد أسست فى السنة التالية فى عهد إدريس بن إدريس[(٢)].

ولقد جرى على هذا الوصف ـ من وجود مدينتين منفصلتين ـ جغرافيون قدامى، من أمثال اليعقوبى[(٣)] والمقدسى[(٤)] والإدريسى، وفى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى وجدت تفاصيل أكثر عن مدينة فاس فى المصنفات التاريخية المغربية، والتى تشير إلى ما ذكره المؤرخ ابن أبى زرع، مؤلف "روض القرطاس" عن المدينة، ونقلها عنه بعدئذ كلّ من الجزبائى فى" زهرة الآس"[(٥)]، وابن القاضى فى "جذوة الاقتباس"[(٦)].

(١) لقد جمع الأستاذ ر. بلاشير، المستشرق المعروف هذه الروايات فى مقال له بعنوان: "فاس عند الجغرافيين العرب فى العصور الوسطى" المنشور فى مجلة هسبيريس ج ١٨ سنة ١٩٣٤م (ص ٤١-٤٨).

(٢) انظر: "جزائر بنى مزغنة"، الطبعة الثانية، الجزائر ١٩١١م ص ١١٥، طبعة أحدث بالجزائر أيضًا ١٩١٣م ص ٢٢٦.

(٣) انظر "صفة المغرب" المأخوذة من كتاب البلدان لأحمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبى. نشره M.J. De Goeje طبعة لندن ١٨٦٠م ص ١٩.

(٤) انظر "أحسن التقاسيم"، طبعة De Goeje لندن ١٩٠٦م، ص ٢٢٩.

(٥) نشرها وترجمها وعلق عليها A. Bel باسم زهرة الآس وهى تتناول تأسيس مدينة فاس. طبعة الجزائر عام ١٩٢٣م.

(٦) انظر الطبعة الحجرية لهذا الكتاب فى فاس سنة ١٣٠٩هـ.

وقد أورد المستشرق ليفى بروفنسال خلاصة رواية كتاب" القرطاس"، بالإضافة إلى المصنفات التى نقلت عنه، مقتصرًا على الجوانب المبينة فى الموضوع، قال[1]:

ولد إدريس الثانى فى وليلى، أو على الأصح وليلة، فى كتلة زرهون الجبلية (جبل زرهون) بعد وفاة أبيه إدريس الأول بشهرين، كان موت أبيه حادثًا محزنًا لوفاته مسمومًا على يد رسول خاص، كان قد أوفده الخليفة العباسى هارون الرشيد سنة ٧٥هـ/ ٧٩١م أو ٧٧هـ/ ٧٩٣م، وقد تولى رشيد عتيق إدريس الأول ورفيقه المخلص مهمة تعليم الطفل حتى كبر، وصار حاكمًا سنة ١٨٨هـ/ ٨٠٤م، بإجماع قبائل البربر بمراكش، ثم مات رشيد بعد هذا بقليل، وفى نهاية السنة التالية وهى سنة ١٨٩هـ/ ٨٠٥م وجد إدريس الثانى أفواجًا من الهجرات العربية تنهال عليه، مما جعل بعضًا من مسلمى إفريقية وإسبانيا تأتى إليه لتربط مصيرها بمصيره، حتى ضاق مقامه بوليلى عن استيعاب هذا النمو المطرد من السكان، بحيث قرر لذلك إنشاء مدينة تكون عاصمة لمملكته، وكان أن وجد فى سنة ١٩٠هـ/ ٨٠٦م مكانًا مناسبًا، يقع على السفح الشمالى لجبل زلغ، وبدأ فعلًا فى بناء المدينة، غير أن عاصفة عاتية ما لبثت أن حطمت الأسس والمعدات، فوقف دولاب العمل.

وفى السنة التالية ـ عند مطلع ١٩١هـ/ نوفمبر ٨٠٦م ـ قرر إدريس الثانى الاستقرار بجوار الضفة اليسرى لنهر سبو، على مقربة مباشرة من ينابيع خولان الساخنة، حيث استحضر المواد اللازمة للعمل، غير أن مخاوفه من عواقب الفيضانات الفصلية للنهر أجبرته على إهمال مشروعه.

أما المحاولة الثالثة فإنها ستكون أوفر حظًا، إذ يختار للمدينة أرضًا مغطاة بأعشاب جافة متشابكة ومغمورة بالمياه الجارية، ويعبرها نهير تغذيه ينابيع مجاورة،

(١) انظر "الإسلام فى المغرب والأندلس"، تأليف ليفى بروفنسال، ترجمة د. السيد محمد سالم / ود. محمد صلاح الدين حلمى: ص ٧-١٠.

وهذا الموقع لحظه عمير وزير إدريس الثانى واقترحه عليه، وكان قد اشتراه المحتلون من بربر زناتة المنتمين إلى أحزاب منافسة، والمعتنقين للإسلام، ثم يأتى إدريس الثانى نفسه ليستقر فى هذا المكان، بل ويصدر الأمر ببدء إنشاء المدينة على التحقيق فى أول أيام شهر ربيع الأول سنة ١٩٢هـ (٤يناير ٨١٨م) حيث يشرع فى بناء حى تخترقه ستة أبواب، على الأرض الواقعة على الضفة اليمنى من النهير، أما فى الداخل فبنى مسجدًا بجانب الآبار على مقربة من معسكر إدريس الذى يحميه سور من خشب، وقد أصبح هذا الحى أحد أحياء المدينة، وسمى باسم حى "الأندلسيين".

بعد ذلك بعام على التحقيق ـ بحسب التوقيت الهجرى، الموافق ٢٣ ديسمبر سنة ٨٠٨م ـ شرع إدريس الثانى فى تشييد حى جديد مواجه للحى الأول، وقد أدى إنشاء هذا الحى إلى إغلاق أسواره لجزء صغير من مجرى النهير، كما أدى إلى امتداده بشكل ملحوظ على الضفة اليسرى من هذا النهير، ذلك الحى من المدينة هو الذى سوف يطلق عليه اسم حى "القرويين"، الذى كان يشبه الحى المقابل له فى إقامة ستة أبواب أيضًا، أما فى داخله فنجد الحاكم يأمر ببناء مسجد ما لبث أن أقيمت حوله أسواق وقيسارية وقصر..

ثم لا يلبث هذا الإنشاء المزدوج الذى قام به إدريس الثانى إلا قليلًا حتى يمتلئ بالسكان ظاهرة، وذلك بفضل التسهيلات العديدة التى منحها الأمير من وفدوا للإقامة فيه، وإن كان معظم النازحين إلى المدينة الشرقية من البربر، فى حين أن أكثر الوافدين إلى المدينة الغربية من العرب، وبسرعة كبيرة تختلط بهؤلاء المسلمين طائفة ملحوظة من اليهود، ويأخذ هذا التجمع اسم "مدينة فاس"، ويستقر فيها مع الأمير أسرته وحاشيته، ولم يكن فى ذلك الوقت قد تجاوز السابعة عشرة من عمره، وظل بها إلى سنة ١٨٧هـ (٨١٢-٨١٣م)، ثم رحل بعد ذلك فى حملة إلى الأطلس الكبير عاد بعدها إلى مدينة فاس، ثم غادرها سنة ١٩٩هـ / ٨١٤-٨١٥م متجهًا

إلى تلمسان، وبعد هذا بثلاث سنوات عاد إلى عاصمته، التى استقبلت فى ذلك الحين حملة قوية من عساكر الأندلس، ممن طردهم الحكم الأول الربضى أمير قرطبة الأموى، وذلك عقب "وقعة الربض" وسمح لهم إدريس الثانى بالقرار فى الحى الشرقى، ومنذ ذلك الوقت لم يبرح إدريس مدينة فاس.

بعد هذا بعشرة أعوام ـ فى سنة ٢١٣هـ / ٨٢٨م ـ مات إدريس فى ظروف غامضة فى فاس نفسها، أو فى وليلة، تاركًا مدينته المزدوجة يانعة مزدهرة كما ترك عند وفاته أطفالًا كثيرة، كان منهم على الأقل اثنا عشر ولدًا تقاسموا أملاكه.

ويعترف ليفى بروفنسال فى مساق هذا الحديث عن مدينة فاس، بأن رواية صاحب القرطاس قد اشتملت على تفاصيل كثيرة عن كل مرحلة من مراحل إنشاء المدينة المزدوجة، وأن هذا المصدر ذو قيمة نادرة بين المصادر الأخرى فى الموضوع، حيث ضم المعلومات الطبوغرافية فيما يتصل بتخطيط الحيين وأبوابهما، وهى معلومات تكاد تكون فريدة فى بابها، إذا ما أضفنا إليها روايات البكرى التى ألمحنا إليها، ولهذه المعلومات قيمتها التاريخية أيضًا، عند القيام بالموازنة بين خريطة فاس الحالية بنظائرها التى كانت لنفس الموقع طوال القرون الأولى من التاريخ الإسلامى.

كذلك يضيف صاحب القرطاس إلى ما سبق، أن مدينة فاس قد نمت من بعد وترعرعت بحركة العمران والمرافق التى استلزمت ذلك، ولكن الحيين اللذين اشتملت عليهما المدينة كان لكل منهما مصير لا يواكب مصير الآخر، نظرًا للاضطراب الذى سادهما على مر التاريخ، فهما تارة متضادان، وتارة متفقان، حتى عدت السنون، وجاء زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين (٤٠٠-٥٠٠هـ) ليحطم الحواجز التى تفصلهما، ويوحدهما بصفة نهائية فى مدينة واحدة عام ٤٦٢هـ / ١٠٦٩م، ومنذ ذلك الحين بدأت تستقر هذه المدينة الكبرى فى العصور الوسطى،

التى لم تلبث أن أصبحت مركز الإسلام فى المغرب الأقصى، زاخرة بمواردها العلمية والصناعية والتجارية. وتجدر الإشارة إلى أن ضفة القرويين هى (مدينة القرويين) الضاحية التى عمرها سكان المغرب الأدنى الذين وفدوا من القيروان، وحيث بنى بها جامع القرويين الذى أسسته السيدة فاطمة الفهرية، وقد خصصنا له حديثًا يليق بما له من أثر إسلامى عظيم فى كتابنا "الإسلام فكرًا وحضارة".

ولقد تضاءل مركز فاس السياسى فى عصر كلّ من المرابطين والموحدين؛ حيث اتخذ هؤلاء من مراكش عاصمة لهم، حتى أتى بنو مرين فأعادوا لفاس مجدها الإدارى، واتخذوها عاصمة لهم.

وإلى جوار فاس القديمة توجد فاس الجديدة، التى بناها الأمير أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى عام ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م، وقد أطلقت عليها عدة أسماء، كالمدينة البيضاء، والبلد الجديد، والمدينة الجديدة.

إن فاس منذ القدم تحتل مكانة مرموقة من بين مدن المغرب التى ذكرنا، من اتخاذها عاصمة للمملكة فترات من الزمن، وعلى الصعيد الإسلامى فإنها تمثل واحدة من المدن الثقافية الإسلامية، لما اشتملت عليه من جامعة عريقة وهى "جامعة القرويين".

من آثارها القديمة ـ إلى جانب القرويين ـ مدرسة أبى عنان المرينى وساعتها الشمسية الغريبة، ومدرسة العطارين، ومدرسة الصباحية، ومسجد الأندلس، وزاوية إدريس الثانى مؤسس المدينة، حيث يوجد ضريحه، وكلها منشآت على الطراز الأندلسى المغربى، كأروع آثار فنية ما زالت تحتفظ بروائها.

وتتصل فاس القديمة بفاس الجديدة عبر حدائق أبى الجنود الغناء، وتعتبر أبواب فاس الجديدة غريبة الشكل، كباب الشاكمة وباب الدكاكين وباب السمارين، وتوجد قبور المرينيين على مرتفع يشرف على المدينة الواقعة فى سفح جبل أخاذ، فى جوف صدفة من الأسوار العتيقة، وقد دفن بالمدينة وخاصة فى أطرافها

كثير من علمائها البارزين وقوادها المشهورين، بالإضافة إلى بعض اللاجئين السياسيين، أمثال لسان الدين بن الخطيب السلمانى المعروف (٧١٣-٧٧٦هـ)، والذى وصف فاس بقوله:

"رَعَى الله قُطْرا يُنْبتُ الغِنَى وآفاقُه ظِلٌ على الدين مَمْدُود

نِعْمَ العَرِين لأُسُود بَنِى مَرِين، ودار العِبَادة التى يَشْهَد بها مَطْرَح الجنة ومسجِد الصّابِرين[١]".

"أُمّ القُرَى، ومَأَمّ السُّرَى، ومَوْقِد نار الوَغَى، ونار القِرَى، ومَقَرّ العِزّ الذى لا يُهْضَم، وكُرسِىّ الخلافة الأعظم، والجَرِيّة التى شَقّها ثُعْبان الوادى فما ارْتاعَت، والأبِيّة التى ما أَذْعَنَتْ إذعانَها للإيالة المَرِينيّة ولا أطاعَت".

"أى كَلَف وكُلف، ومُتّفَق ومُخْتَلَف، ومُحاباة وزُلَف، وقَضِيم وقَلَف، وخَلَف عن سَلَف، إنما الدّنيا أبو دُلَف[٢]".

"سألت عن العالم الثانى[٣]، ومِحْراب السَّبع المَثَانى، ومعنى المَغَانِى، ومَرْقَص النّادِب والغَانِى، وإِرَم المَبَانى[٤] ومُصَلّى القَاصِى والدَّانِى، هى الحَشْر الأول، والقُطب الذى عليه المُعَسّول، والكتاب الذى لا يَتأَوّل".

---

(١) مسجد الصابرين: أحد معالم فاس الإسلامية راجع مجلة البحث العلمى، السنة ١٢ العدد ٢٤ يناير - إبريل ١٩٧٦م.

(٢) أبو دلف: هو أبو القاسم عيسى بن إدريس العجلى، أمير الكرخ وسيد قومه، وأحد الأجواد من الشعراء، كان من رجال الرشيد وابنه المأمون، وقد عقد له الكاتب ابن طيفور جزءًا خاصًا من كتابه (بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية) عند حديثه عن المأمون، وقد توفى أبو دلف عام ٢٢٦هـ والشطر المذكور اقتباس من قوله:

إنما الدنيا أبو دُلف بين معزاه ومحتضره
فإذا وَلى أبو دلف ولّت الدنيا على أثره

(٣) ويقصد بالعالم الأول "الأندلس" يومئذ.

(٤) إرم المبانى: علم المبانى.

"بلد المَدَارِك والمدارس، والمشايخ والفهارس، ودِيوَان الرّاجِل والفارِس، والباب الجَامِع من مُوطَّأ المَرافَق، ولِواء المُلْك الخَافِق، وتَنُّور الماء الدّافِق، ومَحْشَر المُؤمِن والمُنافِق، وسُوقُ الكَاسِد والنَّافِق، حيثُ البُنَى التى نَظَر إليها عَطَارِد[1] فاستجْفَاها، وخافَ عليها الوُجُود أن يُصِيبَها بعَينه الحَسُود، فَسَتَرها بالغور وأخْفَاها[2]".

"والأسواقُ التى ثَمَرات كلّ شىء إليها قد جُبِيتْ، والمَوَارد التى اختُصَّت بالخُضَر وجُبِيَت،والمنازِه المَخطوبَة، وصِفاح الخُلج المشطوبة، والغُدُر التى منها أبو طُوبة[3]".

بَلَـــدٌ أعارَتْـــه الحمامـــة طُـــوْقَها ... وكَسَاه ـ رِيشَ جَناحِه ـ الطـاووس

فكأنمـــا الأنهـــار فـــيه مُدَامَـــة ... وكـأن سـاحات الـدّيار كُـئُوس[4].

"اجتمَع بها ما أولَدَه سامُ وحَام، وعَظُم الالتِئَام والالتِحَام، فلا يُعْدَم فى مَسَالِكها زِحَام وأحجارها طَاحِنة، ومخَابِزها شَاحِنة، وألسنتُها باللغات المختلفة ـ لأحِنة ـ ومكاتبها مائِجَة، ورِحابها مُتمايِجَة، وأوقافُها جارِية، والهِمَم فيها ـ إلى الحَسَنات وأدادِها مُتَبارِية" إلى آخر ما وصفها به[5].

---

(١) عطارد: نجم سيار قريب من الشمس.

(٢) التعبير كناية عن موقع المدينة فى السفح المنخفض، وهو حسن تعليل رائع لوقاية المدينة من عين الحسود بموقعها هكذا.

(٣) أبو طوبة: الريح الطيبة.

(٤) البيتان من قصيدة للشاعر ابن اللبانة، يصف فيها جزيرة ميورقة.

(٥) انظر "معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار"، لابن الخطيب، تحقيق ودراسة للمؤلف: ص ٧٨-٨١، نشر المعهد الجامعى للبحث العلمى (الرباط ١٩٩٧م).

الدولة الفاطمية
(٢٩٧ـ ٣٤١هـ/ ٩٠٩ ـ ٩٥٢م)

ورثت الدولة العبيدية أو الفاطمية الدولة الإدريسية فى المغرب، حيث استطاعت أن تقضى على نفوذ الأغالبة والرستميين والمدراريين والأدارسة أيضًا، وقد مهدت دولة الأدارسة السبيل لدعاة العبيديين الفاطميين فى المغرب، وهيأت الأذهان لقبول دعوتهم لآل البيت، وهكذا تمكنت دولة الفاطميين أنت تبسط سلطانها ـ بفضل بعض القبائل المغربية ـ على تلك المناطق الشاسعة من المغرب الأقصى غربًا وحتى بلاد إفريقية شرقًا، وسنعود بالتفصيل لهذه الدولة عند الحديث عن إفريقية (تونس).

* * *

دولة المرابطين

(٤٤٨ ـ ٥٤١هـ/ ١٠٥٦ ـ ١١٤٧م)

هم عدة قبائل تنسب إلى حمير، أشهرهم لمتونة، دخلوا المغرب مع القائد الفاتح موسى بن نصير، وتوجهوا مع طارق بن زياد إلى طنجة، ثم ملّوا حياة المدن، فدخلوا الصحراء واستوطنوها.

اتخذ المرابطون السواد شعارًا لهم وخاصة فى لثامهم وأعلامهم، وهو شعار بنى العباس أصحاب السيادة الروحية على تلك المناطق العربية، وقد نص ابن خلدون على أن يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين بعث إلى الخليفة العباسى المستظهر بالله، مبايعًا له على يد رسوله عبد الله بن العربى وولده القاضى أبى بكر، طالبين من الخليفة إقراره على حكم المغرب، فوافق على ذلك، وأرسل إلى ابن تاشفين بعهد الخلافة[1].

ويرى بعض المؤرخين أن الخليفة الذى أعطى عهد الخلافة لابن تاشفين إنما هو المقتدى أو المستنصر بالله وليس المستظهر، ويستندون فى ذلك إلى أن الكُتّاب الذين ترجموا لحياة القاضى أبى بكر بن العربى قد تحدثوا عن رحلته ومؤلفاته وشيوخه بالتفصيل، ولكنهم لم يتحدثوا عن الدور السياسى الذى قام به هو ووالده خلال هذه

(١) ابن خلدون "المقدمة" ص ٢٢٩.

الرحلة[1]، كما ينفى هذا الدور السياسى عبد الحى الكتانى، ويفند رواية ابن خلدون، ويقطع بعدم صحتها استنادًا إلى أولئك المؤرخين الذين لم يتطرقوا فى ترجماتهم للقاضى أبى بكر ووالده إلى مهام سياسية خلال رحلة الوالد والابن، يقول الكتانى: " وما ذكره ابن خلدون فى هذا الصدد منقوض، فإن ابن العربى وولده ذهبا إلى المشرق فرارًا من يوسف بن تاشفين لما سقطت دولة المعتمد بن عباد، بدليل أن عبد الله بقى بالمشرق متجولًا إلى أن مات هناك إجماعًا، وبقى ولده أبو بكر بعده ثم رجع لبلدته (أشبيلية) لا لمراكش، وفى مدة انتقالهما وجولاتهما بالمشرق اعتقلت أملاكهما إلى أن رجع أبو بكر، فتشفع فى ردها عليه الحافظ أبو على الصدفى"[2].

هذا، ولكن الوثائق التى عثر عليها بعض الباحثين حديثًا تتفق مع ما جاء عند ابن خلدون وتناقض ما ذهب إليه عبد الحى الكتانى، ففى قطعة خطية من كتاب "ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة"، لهذا العالم الشهير أبى بكر بن العودى المعافرى المالكى، قاضى قضاة أشبيلية على عهد المرابطين(٤٦٨ ـ ٥٤٢هـ/ ١٠٧٦ـ ١١٤٨م) يتحدث ابن العربى عن رحلته التى قام بها مع والده إلى المشرق عام ٤٨٥هـ وكان عمره آن ذاك لم يتجاوز السبعة عشر عامًا، وأورد فى حديثه خطابات ووثائق رسمية ذات أهمية بالغة، يتضح منها ما يلى:

أولًا: أن الهدف من وراء هذه الرحلة هو الحصول على نص شريف من صاحب الخلافة العباسية، يتضمن تسليم جميع بلاد المغرب إلى الأمير ناصر الدين يوسف بن تاشفين

"ليكون رئيسهم ورءوسهم تحت طاعته، وأن من خالف أمره فقد خالف أمر أمير المؤمنين ابن عم سيد المرسلين، ويتعين جهاده على كافة المسلمين".

(١) المقرى فى "نفح الطيب" ج ٢ ص (٢٢٣-٢٥٠)، وابن بشكوال فى "كتاب الصلة" ترجمة رقم ١٨١، والحسن النباهى فى "المرقبة العليا" ص (١٠٥-١٠٧).

(٢) التراتيب الإدارية ج ١ ص ١٢-١٣.

ثانيًا: أن الخليفة العباسى يؤمئذ كان هو الخليفة احمد المستظهر بالله(٤٨٧ ـ ٥١٢هـ/ ١٠٩٤ ـ١١٩٨م) الذى وافق على هذه الرغبة، وأعطى ابن العربى وولده تقليده وعهده للأمير يوسف بن تاشفين، موقعًا عليه بعلامته التى اعتادها وهى " القاهر بالله".

ثالثًا: لقد تضمن خطاب الوزير العباسى أبى منصور محمد بن جهير نص تقليد العهد إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من قبل الخليفة.

رابعًا: كما تضمنت تلك الوثيقة نص الفتيا التى طلبها ابن العربى ووالده من الفيلسوف أبى حامد الغزالى الطوسى(٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ) حول ما أثير يومئذ فى شأن شرعية حكم الأمير ابن تاشفين ورد الغزالى عليها، ثم نص الخطاب الذى بعث به الغزالى إلى يوسف بن تاشفين ، وقد اشتملت الفتيا على بسط الموقف المضاد الذى اتخذه ملوك الطوائف، تجاه ابن تاشفين، ورفضهم الجهاد بصحبه، بدعوى أنه ليس إمامًا قرشيًّا أو نائبًا لإمام، واتهامهم إياه بالتحايل"لعدم وجود ما يثبت ذلك لديه".

وقد برر الغزالى شرعية تقليد العهد لزعيم المرابطين بأن تأخر منشور التقليد الخلافى عن ابن تاشفين"لاعتراض العوائق المانعة من وصوله، لا يحول بين ابن تاشفين وبين نيابته عن الامام بحكم قرينة الحال، وأن على الامام أن يتدارك مثل هذه الأحوال بالسرعة الواجبة منعًا لوقوع الفتن".

رأى المستشرق ليفى بروفنسال فى المرابطين

يقول هذا المستشرق الفرنسى، منوهًا بالدور البطولى لهؤلاء، بزعامة القائد يوسف بن تاشفين وابنه، فى كل من المغرب والأندلس:

" هؤلاء الملثمون أبناء الصحراء، الذين لم يلبثوا أن تهيأت نفوسهم، بحيث اضطلعوا بدور الملوك الصيِّد، ثم لم يلبثوا أن تأسبنوا بمجرد الاتصال بالحضارة الإسلامية بالأندلس، برزوا حقًّا فى العصر الوسيط المغربى، ولم يكن هذا شأن الفارس البربرى العظيم يوسف بن تاشفين وحده، وإنما كان أيضًا شأن ابنه على بن يوسف الذى استهل حكمه بحقبة من الرخاء والازدهار، والذى ازدان بلاطه بمراكش بخيرة العلماء والأدباء الذين وفدوا من الأندلس، وعاشوا فى رحابه بإفريقية".

* * *

الزعيم يوسف بن تاشفين

لقد اختط ابن تاشفين مدينة مراكش، ونزلها بالخيام عام ٤٥٤هـ وأقام بها مسجده الذى ما زال قائمًا حتى وقتنا الحاضر، وأحاطها بالأسوار، ثم أكملها ابنه من بعده على سنة ٥٢٦هـ، وجعلها عاصمة ملكه، وبذلك تحول عن فاس عاصمة الأدارسة، ويرجع اختياره لمراكش بالذات إلى كونه يستطيع من موقعها أن يراقب حركات الأعداء المناوئين له ويصدهم.

أولئك الذين كانوا يتحينون الفرصة بهذه الدولة الفتية، ولعل أبرز هؤلاء المناوئين يومئذ هم الموحدون الذين ورثوا ملك المرابطين.

لقد اعتلى المرابطون المسرح السياسى من منتصف القرن الحادى عشر إلى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى، أى ما يقرب من قرن من الزمان، ويرجع الفضل الأول والأساسى لقيام هذه الدولة إلى داعية فقيه من قبيلة جزولة، اسمه عبد الله بن ياسين الذى كان عالـمًا ورعًا زاهدًا، احتفلت قبائل لمتونة الصناهجة بقدومه احتفالًا عظيمًا وبادر هو من جانبه بتثقيفهم وتعليمهم علوم القرآن والسنة، ولكنهم ثاروا عليه لقسوة تعاليمه، فاضطر إلى الخروج إلى بلاد السودان، حيث يمكنه أن يؤدى رسالته بين أقوام يسهل قيادهم، برفقة زعيم لمتونة يحيى بن عمر وأخيه أبى بكر، حيث قصد ثلاثتهم جزيرة تقع قبالة السنغال الأدنى، وهناك أسس

عبد الله بن ياسين "رباطًا" ، وهو حصن للتعبد، ومقرًّا لمن نذروا أنفسهم للجهاد والدفاع عن بلادهم فى سبيل الله، فهو مكان يجمع بين الصفة الدينية والحربية، وسمى من سكنوا فيه بـ" المرابطين" .

وهكذا لم يمض وقت طويل حتى كان قد تتلمذ على هذا الزعيم الدينى عبد الله ابن ياسين كثيرون، والتف حول" رباطه" جمع غفير، ضم الألوف المؤلفة من المخلصين لدعوته ممن أطاعوه طاعة عمياء، وعرف هؤلاء بالملثمين لاتخاذهم لثامًا على وجوههم، وعليه استطاع الزعيم أن يؤلف من أتباعه جيشًا محاربًا، جعل على رأسه صاحبه يحيى بن عمر الذى تفانى فى الإخلاص لابن ياسين.

شرع عبد الله بن ياسين فى نشر تعاليمه بين القبائل البربرية، ثم تبلورت حركته الدينية إلى حركة مسلحة استطاع عن طريقها أن يخضع كثيرًا من البربر، وتمكن بذلك من دخول "سجلماسة" عام ٤٤٥هـ (١٠٥٣م)، وتدفقت جموع المرابطين بعدئذ على الواحات المغربية المجاورة، وصادفوا فى اكتساحهم بعض الهزائم التى قتل فيها القائد يحيى بن عمر، إلا أن يوسف بن تاشفين تولى القيادة الجديدة للجيوش المرابطية، وهو ابن عم يحيى بن عمر، واستطاع استرجاع ما فقده المرابطون من الواحات المغربية ، واجتاز الأطلس الغربى، ثم اتجه يوسف بجيوشه بعد استيلائه على المغرب الجنوبى إلى المغرب الشرقى، حيث دخل مدينة" أغمات" ما يليها، وفى عام ٤٥٠هـ (١٠٥٨م) قتل عبد الله بن ياسين فى إحدى المعارك.

وفى هذه الأثناء تحولت حركة المرابطين الإصلاحية إلى حركة سياسية بفعل الظروف المعاصرة، وذلك بقصد السيطرة التامة على الأراضى المغربية.

ولما كانت سنة ٤٥٤هـ (١٠٦٢م) اتجه يوسف بن تاشفين إلى تأسيس عاصمة جديدة للمرابطين بدلًا من "أغمات" لتكون مقرًّا لجيوشه فى جنوب المغرب وسماها" مراكش"، ومعناها بلغة البربر المصامدة، " امش مسرعًا" .

وذكر صاحب " روض القرطاس" أن يوسف بن تاشفين" اشترى موضع مدينة مراكش ممن كان يملكه من المصامدة، فسكن الموضع بخيام الشعر، وبنى به مسجدًا

للصلاة، وقبصة صغيرة فخزن أمواله وسلاحه، ولم يبن على ذلك سورًا، ولما شرع ـ رحمه الله ـ فى بناء المسجد كان يحتزم ويعمل فى الطين والبناء بيده مع الخدمة تواضعًا منه وتورعًا"، وقد ظلت مراكش بلا سور يحيط بها حتى جاء على بن يوسف فأقامه سنة ست وعشرين وخمسمائة، وبذلك اتخذت مدينة مراكش مظهرها الحضرى كعاصمة بعد بناء السور، وهكذا كان إنشاء مراكش تدعيمًا لمركز المرابطين فى المغرب.

وقد وجه ابن تاشفين بعد ذلك جهوده لفتح بقية مدن وبلاد المغرب، فاستولى على" فاس" عام ٤٦٢هـ (١٠٦٩م)، وكذا مكناسة، ومعظم بلاد المغرب الشرقى، وحيث استولى على" تازة" عام ٤٦٧هـ (١٠٧٤م) ، ثم على طنجة وسبتة، وفى سنة ٤٧٢هـ (١٠٧٩م) سيّر جيشًا اخترق به المغرب الأوسط، وزحف شرقًا، فاستولى على " مليلية" ثم" وجدة" ثم" تلمسان" وبذلك فقد الزناتيون عاصمتهم هذه، كما أخضع مدينة" وهران" ووصلت جيوشه حتى مدينة " الجزائر" .

وفى سنة ٤٧٩هـ عبر يوسف بن تاشفين البحر إلى الأندلس، وذلك استجابة لنداء بعض ملوك الطوائف، وعلى رأسهم " المعتمد بن عباد" أمير أشبيلية، حيث اشتبك مع جيوش ألفونسو السادس فى موقعة" الزلاقة" فى رجب عام ٤٧٩هـ ، وحيث انتصرت الجيوش المرابطية والأندلسية انتصارًا ساحقًا، ثم اجتاحت جيوش المرابطين بعدئذ بلاد الأندلسن وأطاحت بعروش ملوك الطوائف، فقضى على ملك عبد الله بن الزيزى بغرناطة، والمعتصم بن صمادح بالمرية، وبنى هود بسرقسطة، وبنى طاهر بمرسية، وبنى عباد بأشبيلية، وبذلك شملت إمبراطورية المرابطين بلاد الأندلس، واتخذ يوسف بن تاشفين لقب" أمير المسلمين" منذ ذلك الحين، ثم توفى عام ٤٩٣هـ (١٠٩٩م) فتولى الأمر من بعده ابنه على، واستن سنة والده فى اتخاذه نفس اللقب لنفسه، ولقب" المرابطين" لأصحابه، كما شق طريقه فى الجهاد ضد الأعداء، ولا سيما النصارى فى الأندلس، وكان يتصف بالتقوى والورع والميل إلى أهل العلم والفقهاء، تمامًا كما كان والده فى هذه الميادين، وقد تميز عهده بنبذ علم

الكلام، والبعد عن الخوض فى المجادلات الدينية، وعليه فلما دخلت كتب الإمام الغزالى المغرب أمر أمير المسلمين بحرقها، وتوعد من وُجد عنده شىء من هذه الكتب بسفك دمه ومصادرة أمواله.

ولقد أورث يوسف بن تاشفين لابنه على إمبراطورية فسيحة الأرجاء، مترامية الأطراف، تمتد من بجاية فى الجزائر شرقًا إلى بلاد السوس الأقصى غربًا، ومن "تافيلالت" إلى السودان جنوبًا، بالإضافة إلى إسبانيا بأكملها، لكن بعد الكمال يكون الانحطاط والأيام دول، فقد أخذ المرابطون يترددون فى منازل اللهو والترف، الأمر الذى أضعف من خشونتهم، وفقد الجنود ـ تحت عامل الحضارة التى غرقوا فى بحارها ـ صفاتهم الأصيلة ومبادئهم الأولى، حيث تغلبت عليهم الشهوات، وفى هذا يروى " المراكشى" صاحب كتاب" المعجب فى تلخيص أخبار المغرب" :

" واختلت حال أمير المسلمين ـ رحمه الله ـ بعد الخمسمائة اختلالًا شديدًا، فظهرت فى بلاده مناكر كثيرة، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد، وانتهوا فى ذلك إلى التصريح، فصار كل منهم يصرح بأنه خير من على أمير المسلمين، وأحق بالأمر منه، واستولى النساء على الأحوال، وأسندت إليهن الأمور، وصارت كل امراة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير، وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور، وأمير المسلمين فى ذلك كله يتزايد تغافله، ويقوى ضعفه وقنع باسم إمرة المسلمين، وعكف على العبادة والتبتل، فكان يقوم الليل ويصوم النهار، مشتهرًا عنه ذلك، وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال، فاختل عليه لذلك كثير من بلاد الأندلس، كادت تعود إلى حالها الأول" .

لقد لحقت الهزائم الجيوش المرابطية فى الأندلس، وسقطت كثير من المدن الأندلسية فى أيدى النصارى، وحينئذ أدرك الأندلسيون أن المرابطين قد عجزوا تمامًا عن حمايتهم، وكان نجم هؤلاء قد أخذ فى الأفول بالمغرب، فخلع مسلمو الأندلس سلطان المرابطين، ودعوا للموحدين.

ونعود إلى حادث إحراق مؤلفات الإمام الغزالى، لنضيفها إلى قائمة أسباب ضعف الدولة المرابطية وانحدارها إلى السقوط، فقد نوه الغزالى فى كتابه" إحياء علوم الدين" بأن العلم ليس حرفة كالحرف الأخرى، أو مهنة دنيوية تعود على صاحبها بالربح العاجل ، وإنما هو عبادة القلب، وصلاة السر، وقربة الباطن إلى الله تعالى " فكان هذا يتنافى ونزعة فقهاء المغرب فى دراساتهم وحرصهم على الدنيا، وتطلعهم إلى المناصب الرفيعة، ونقمتهم على العلماء الزهاد، وهكذا اتسع نفوذهم، وعظم خطرهم فى عهد على بن يوسف بن تاشفين، وجرت الأموال بين أيديهم، وفى المقابل ـ تأمينًا لمصالحهم ومحاربة لدعوة الغزالى ـ نرى هؤلاء العلماء قد اتخذوا قرارًا أملوه على السلطان عام ٥٠٥هـ (١١٠٩م) بإحراق كتب الغزالى.

لقد حصل قاضى قرطبة يومئذ واسمه ابن حمدين على أمر من السلطان بتنفيذ عملية الإحراق هذه، فأحرقت نسخة مجلدة من كتاب" إحياء علوم الدين" للغزالى، كرمز لإعدام كافة النسخ الأخرى وغيرها من كتبه، وتم ذلك لتلك النسخة أمام الباب الغربى لجامع قرطبة، بعد أن سكب عليها الزيت بمحضر جمع حاشد من الفقهاء، كما صدر مثل هذا القرار بالنسبة لجميع بلاد المرابطين فى المغرب والأندلس، ونسب إلى المؤلف الغزالى أنه مارق على الملة والدين.

أما رد الفعل فكان أن ثار الناس على ذلك بطبيعة الحال، وحدث تبعًا لذلك أن كان هناك عالم بربرى درس فى المشرق، وتأثر بتعاليم الغزالى وأفكاره، ثم عاد إلى المغرب ينشر تعاليمه، وكان خطيبًا بليغًا وذا تأثير فى قلوب الناس، مشددًا النكير على البدع فى عصره، وحمل حملة شعواء على الفقهاء خاصة وكذا طبقة الأثرياء، ذلكم هو " المهدى بن تومرت" ، الذى أسس"الدولة الموحدية" وتمكّن من القضاء على الدولة المرابطية.

* * *

حضارة المرابطين فى المغرب

يتميز الحكم المرابطى بأنه جمع بين بلاد المغرب، وألَّف دولة كبرى بربرية الأصل، مستقلة عن الشرق، فيما سوى الاستظلال بظل الخلافة العباسية، وبذلك تكوَّنت الوحدة السياسية للمغرب، ويرجع الفضل فى هذه الوحدة إلى زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين، وقد ظلت هذه الوحدة قائمة على عهد الموحدين.

ومن الناحية الحضارية، نرى أن المرابطين قد ضحوا بهذا الجانب فى سبيل قيام الوحدة السياسية، ذلك أنهم دمروا الكثير من العمران، وخاضوا الكثير من المعارك التى أتت على الأخضر واليابس، وكل هذا بغرض توسيع رقعة دولتهم مع القضاء على تلك القبائل التى كانت تعمر مناطق شاسعة، ذات زروع وكروم، ومدن قائمة وإن كانت صغيرة، إضافة إلى القرى والمجاشر التى أهلكوها، إلا أنهم تنبهوا أخيرًا إلى الخطر الاقتصادى الذى أصاب البلاد والعباد، فشجعوا على إنشاء تجمعات عمرانية كبرى، فتأسست مدن مثل مكناس وتلمسان، كما اهتموا بتوحيد مدينة فاس التى ازدهرت على أيامهم، وأولوا مدينة مراكش عناية خاصة، فهى عاصمتهم التى أنشأها يوسف بن تاشفين عام ٤٥٤هـ، وقام ابنه على بتسويرها عام ٥٢٢هـ، على نحو ما فصلنا القول من قبل.

هذا ويرجع الفضل إلى المرابطين فى نشر المذهب المالكى على نطاق واسع فى بلاد المغرب، ونشر الإسلام فى ربوع البلاد المتاخمة لمملكتهم، والضرب على أيدى

العابثين والمفسدين والمبتدعين، فسادَ الأمن ربوع الدولة، واستقرت أحوال الناس، كما شجعوا من ناحية أخرى انتقال الحضارة الأندلسية إلى بلاد المغرب، وذلك بفتح باب الهجرة لمن رغب من الأندلسيين فى الانتقال إلى المغرب أو النزوح إليه، وسدوا طرق المشرق فى وجه الأندلس، فانعدم اتصال الغرب الإسلامى بالمشرق على أيامهم.

ولا ننسى أن نذكر المرابطين بالفضل، فى أنهم فتحوا باب الجهاد على مصراعيه ، وشجعوا المقاتلين فى سبيل الله، ولا سيما فى الأندلس ضد النصارى الإسبان، ولذلك نلحظ العزلة التامة بين المسلمين والنصارى على عهدهم، فانعدم عنصر التعاون بين الطرفين فى مجالات شتى، حيث طورد الإسبان أينما ظفروا بهم، واستؤصلت شأفتهم فى البلاد الأندلسية.

وفى ميدان العلوم والفنون والآداب نرى المرابطين قد شجعوا القائمين على هذه المجالات إلى حد ما، إذا ما استثنينا علوم القرآن والحديث والتفسير، وحيث شهر عن هذه الدولة المرابطية أنها"دولة الفقهاء" ، كما ظل الحال كذلك أيام وريثتهم "دولة الموحدين" .

* * *

ملوك المرابطين

أبو بكر بن عمر	٤٣٨هـ/ ١٠٥٦م
يوسف بن تاشفين	٤٤٠هـ/ ١٠٨٧م
على بن يوسف	٥٠٠هـ/ ١١٠٦م
تاشفين بن على	٥٣٧هـ/ ١١٤٣م
إبراهيم بن تاشفين	٥٤١هـ/ ١١٤٦م
إسحاق بن على	٥٤١هـ/ ١١٤٧م
	(توفى عام توليته)

أسباب ضعف المرابطين وسقوطهم

أولًا: تجريد الموحدين حملاتهم المتتالية لإسقاط المرابطين.

ثانيًا: تطلع النساء فى دولة المرابطين للسلطة، والتدخل فى شئون الحكم فى كثير من الأحيان، وذلك بحكم الحرية التى طُبِعْن عليها من قبل.

ثالثًا: سلطة الفقهاء المتزمتين، أولئك الذين كانوا يتميزون بضآلة البحث، وتكفير المجتهدين وتعقبهم، كما أحرقوا كتب الغزالى، وتسلطوا على تلاميذه ومريديه، وكان ميلهم للزهد ميلًا ظاهريًّا فقط، وكانت النتيجة عند الحاكم انقطاعه للعبادة وعدم اشتغاله بأمور الدولة، وفى المقابل استبد أمراء الأقاليم بالسلطة، وأخذ كل منهم يرى نفسه أحق بالحكم والأمر منه.

رابعًا: اتساع رقعة الدولة شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، مما استعصى معه الأمر فى لَمّ الشمل، وجمع الكلمة فى نهاية حكم الدولة، وبذلك أخذ الموحدون ينقضون على أطرافها حتى أسقطوها.

* * *

هكذا انحلّت دولة المرابطين ، فكانت نهاية على بن يوسف نهاية هذه الدولة عام ٥٣٧هـ ، إذ سقطت عاصمتهم بعد ذلك بحوالى ٤ سنوات، فى يد القوة الجديدة "قوة الموحدين" وبذلك عمرت الدولة حوالى مائة عام لا أكثر.

دولة الموحدين
(٥٢٤-٦٦٨هـ/ ١١٣٠-١٢٦٩م)

قامت دعوة الموحدين فى الشمال الإفريقى على إثر انتشار مذهب"المجسمة" ، الذين كان أصحابه يفسرون الآيات التى يبدو منها تجسيم تفسيرًا ظاهريًا لا مجازيًا، وذلك فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى.

ومثل هذه الآيات القرآنية قوله تعالى: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾، وقوله تعالى ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾، فانبرى المفكرون من "الموحدين" للوقوف أمام"المجسِّمة"، وبيّنوا أن الله تعالى منزه عن التشبيه بالخلق ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] ، والقول بغير ذلك كفر وإلحاد، فهم - على هذا الأساس - يعتقدون بوحدانية الله تعالى: وأنه لا إله سواه ، كما أنه منزه عن كل ما سواه من الحوادث والمخلوقات.

وبالإضافة إلى هذا الشطط فى العقيدة - فى أواخر العهد المرابطى - ظهر شطط آخر لا يقل خطورة، وهو أن الفقهاء لم يكونوا يرجعون إلى القرآن الكريم والسنة النبوية فى استنباط الأحكام، وإنما بالغوا فى الاستنباط من كتب فروع الفقه، ومالوا إلى مذهب الإمام مالك دون سواه، ولم يكن يحظى لدى أمراء المرابطين إلا من علم فروع مذهب الإمام مالك، وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها، الأمر الذى جعل "الموحدين" يثورون على هذه الأوضاع، فقاموا على أساس ضرورة العودة

إلى القرآن والحديث كمصدر للدراسة، ومن أجل ميلهم إلى " الحديث" عرفوا بـ " المحدثين" ومن أجل جهادهم فى سبيل تنقية العقيدة وتخليصها من الشوائب سُمُّوا بـ" الموحدين" .

أولهم: " محمد بن تومرت" من قبيلة مصمودة، والملقب فيما بعد بالمهدى، ثم عبد المؤمن الموحدى الذى كتم خبر وفاة المهدى، خوفًا من سخط المصامدة عند ولاية عبد المؤمن بن على؛ لكونه من غير جلدتهم، فأرجأ إذاعة خبر الوفاة إلى أن يخالط بشاشة الدعوة قلوبهم، ودفنوا المهدى داخل الدار، وكان عبد المؤمن وأصحابه يدخلون إلى مدفنه، حيث يعقدون الجلسات، ويتخذون القرارات، ثم يخرجون بها على أنها من إرشاد ابن تومرت ورأيه[١].

فلما تمكَّن أمر الدعوة وتمت مصاهرة بين عبد المؤمن والشيخ أبى حفص أمير هنتانة وكبير المصامدة، أعلنوا موت المهدى، واستقر الأمر لعبد المؤمن[٢]، الذى قاد المرحلة الثانية فى الصراع بين المرابطين والموحدين، تلك التى انتهت بإسقاط المرابطين بعد كفاح مرير، وقيام الدولة الموحدية الكبرى[٣].

الموحدون والأندلس

وفى الوقت نفسه نرى على الساحة الأندلسية أن "ألفونسو المحارب" ملك أراجون يُغِير على الولايات الأندلسية ضد المرابطين، معتمدًا على مساعدة المعاهدين له، وهم النصارى المستعربون الذين يعيشون فى الأراضى الإسلامية آنذاك، واستطاع أن يعيث فى الأراضى الأندلسية، مخربًا للزروع والعمران، حتى وصل إلى البحر المتوسط بمساعدة المعاهدين، وعاد إلى قواعده ورجاله غانمًا سالـمًا، مما تأكد معه الأندلسيون أن سلطان المرابطين آخذ فى الزوال، تمامًا كما كان الحال فى المغرب.

(١) "تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية"، للدكتور أحمد شلبى ٤/ ١٨٦، الطبعة الثالثة ١٩٦٩م.
(٢) "ابن خلدون": العبر ٦/ ٢٢٩.
(٣) "الدولة الموحدية بالمغرب". عبد الله على علام ص ٨١.

لقد صمم الموحدون على مواصلة القتال بعد أن استأنفوا نشاطهم الحربى، وحيث انتصروا فى بعض المعارك ، ثم أعدّوا جيشًا عظيمًا زحفوا به على "مراكش" وحاصروها، ولكن المرابطين تمكنوا بعد جهد جهيد من فك الحصار، ثم كان أن مرض "المهدى" ومات عام ٥٢٤هـ ، بعد أن أوصى بالخلافة من بعده إلى "عبد المؤمن الموحدى" ، والذى استطاع أن يترسم خطى أستاذه، فواصل حملاته الحربية، حيث تمكن من اقتحام" مراكش" ودخوله عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م، وهكذا انهار عرش أبناء تاشفين.

وفى هذه الأثناء كان الأندلسيون فى شبه الجزيرة يرهقون المرابطين، وذلك أملًا فى خلع طاعتهم، وليحل الموحدون محلهم، فقد شبت الثورات فى البقاع الغربية بقيادة أحمد بن الحسين بن قسى، وشملت مدنًا كثيرة حتى بلغت أشبيلية وقرطبة، ضد قائد المرابطين يحيى بن غانية الذى عجز عن إطفاء هذه الثورات.

وما إن بلغ عبد المؤمن نبأ ما يجرى فى الأندلس ضد المرابطين، حتى نراه قد جهز جيشًا قوامه عشرة آلاف فارس وعشرين ألف رجل، وقدم على هذا الجيش قائده موسى بن سعيد، فعبر المضيق، واستولى على حصن " الجزيرة الخضراء" وجبل طارق، هازمًا فى طريقه قوات المرابطين، وقد زامن هذا الانتصار فى الأندلس سقوط" مراكش" فى المغرب، فبات من السهل على الموحدين بالأندلس ـ بمعرفة حلفائهم أهل البلاد ـ أن يستأصلوا شأفة المرابطين بعد معارك دامية، بذل فيها الطرفان جهودًا مضنية، انتهت باستسلام البعض من المرابطين، بينما هرب البعض الآخر إلى شرق الجزائر فى سفن تحت جنح الظلام بعيدًا عن أعين الملثمين، وتولى أمر الأندلس حينئذ أبو يعقوب يوسف من قبل أبيه عبد المؤمن بن على، ولم يستطع الخليفة الموحدى أن يدخل الأراضى الأندلسية إلا عام ١١٦١م، بعد أن تم له الاستيلاء على بلاد إفريقية، وافتتح المهدية وتونس، حيث انتزع كل هذا من أيدى النورمانديين أصحاب صقلية، فعبر المضيق ونزل بجبل طارق، الذى أقام فيه حصنًا سماه" جبل طارق" .

وتجدر الإشارة فى هذه المناسبة إلى أن الجيش الموحدى النظامى كان من أرقى الجيوش يؤمئذ، ويرجع الفضل فى إنشائه وتنظيمه إلى القائد الأمير عبد المؤمن خليفة المهدى، فقد كان هذا القائد ذا دراية، وخبرة عظيمة فى تدريب الجيوش وقيادتها وإدارتها، فقد أنشأ بمدينة مراكش مدرسة حربية كان بها حوالى ثلاثة آلاف طالب، وكان يقوم بنفسه باختبارهم ليطمئن على تقدمهم فى الفنون العسكرية، ويشاهد المناورات التى يقومون بها، ويقف على رياضتهم فى أساليب الطعن والرمى والمبارزة، وامتطاء الخيول والكر والفر، وقيادة السفن الحربية وكيفيتها، والمعارك فى البحار، وما إلى ذلك من الأمور العسكرية.

وهكذا، اطمأن الموحدون إلى أنهم يتوفرون على جيش نظامى مدرب تدريبًا هامًّا يستندون إليه، وهم مطمئنون فى مقاومة الأعداء أيًا كان جنسهم، كما أنهم كانوا يمتلكون أسطولًا بحريًّا عظيمًا، تحدوهم ـ مع كل هذا الاستعداد ـ تلك الفلسفة التى نادوا بها، وذلك فى قيام حكومة شعارها الزهد فى الدنيا بادئ ذى بدء، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتخليص الدين من شوائب البدع والضلالات، وتحكيم القرآن والسنة.

أشهر ملوك الموحدين

لقد اشتهر من بين ملوك الموحدين" أبو يوسف يعقوب المنصور" الذى وصفه ابن خلكان فى كتابه "وفيات الأعيان" بقوله: "... وكان الأمير يشدد فى إلزام الرعية، بإقامة الصلوات الخمس، وقتل ـ فى بعض الأحيان ـ على شرب الخمر، وقتل العمال الذين تشكو الرعايا منهم، وأمر برفض فروع الفقه، وأن الفقهاء لا يفتون إلا بالكتاب والسنة النبوية، ولا يقدمون أحدًا من الأئمة المجتهدين المتقدمين، بل تكون أحكامهم بما يؤدى إليه اجتهادهم، من استنباطهم القضايا من الكتاب والسنة والإجماع والقياس، ولقد أدركنا جماعة من مشايخ المغرب وصلوا إلينا وهم على ذلك الطريق، مثل أبى الخطاب بن دحية، وأخيه عمرو، ومحيى الدين ابن العربى نزيل دمشق، وغيرهم".

وكان المنصور يعاقب على ترك الصلوات، ويأمر بالنداء فى الأسواق بالمبادرة إليها، فمن غفل أو اشتغل بمعيشته عزروه تعزيرًا بليغًا، وكان قد عظم ملكه واتسعت دائرة سلطته ، حتى إنه لم يبق بجمع أقطار البلاد (بلاد المغرب) من البحر المحيط إلى برقة إلا من هو فى طاعته، وداخل فى ولايته، إلى غير ذلك من جزيرة الأندلس، وكان محسنًا، محبًّا للعلماء، مقربًا للأدباء، مصغيًا إلى المدح، مثيبًا عليه" .

* * *

ملوك الموحدين

محمد بن تومرت (المهدى)	حتى سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م
عبد المؤمن بن على	من ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م
	(استولى على مراكش عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م)
أبو يعقوب يوسف الأول	٥٥٨هـ/ ١١٦٣م
أبو يوسف يعقوب المنصور	٥٨٠هـ/ ١١٨٤م
محمد ناصر	٥٩٥هـ/ ١١٩٩م
أبو يعقوب يوسف الثانى	٦١١هـ/ ١٢١٤م
أبو محمد عبد الواحد المخلوع	٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م
أبو محمد عبد الله العادل	٦٢١هـ/ ١٢٢٤م
يحيى المعتصم بالله	٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م
أبو العلاء إدريس المأمون	٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م
عبد الواحد بن المأمون	٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م
أبو الحسن على السعيد	٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م
أبو حفص عمر المرتضى	٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م
أبو العلاء الواثق	٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م
	إلى ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م

* * *

محمد بن تومرت

مولده ونشأته

ولد محمد بن تومرت بقرية إيجلى بجبال الأطلس ببلاد السوس بالمغرب الأقصى، وذلك فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى[1].

ويرى ابن خلدون أن نسبه يرجع إلى على بن أبى طالب، وأن جده الأعلى وفد مع إدريس إلى المغرب، ولكن نسبه الطالبى وقع فى "هرغة" من قبائل المصامدة، ورسخت عروقه فيهم، والتحم بعصبيتهم، فلبس جلدتهم، وانتسب بنسبهم، وصار على عدادهم[2].

إن أنصار ابن تومرت لا يعارضون فى انتسابه إلى النبى ﷺ بل هم يؤمنون بمهدويته، والنسبة النبوية شرط أساسى فى المهدى المنتظر، ومن هنا نرى المؤرخين الذين نشأوا فى كنف الدعوة الموحدية يؤكدون هذه النسبة النبوية، وفى مقدمة هؤلاء أبو بكر الصنهاجى المعروف بالبزق، إذ يقول: إنه (أى ابن تومرت) هو محمد

(١) تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ج ٤ "العصر العباسى الثانى". د/ حسن إبراهيم حسن. الطبعة الثانية ١٩٨٢م.

(٢) ابن خلدون: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد "العبر وديوان المبتدأ والخبر" ج ٦ ص ٢٢٦، بيروت ١٩٥٩م.

ابن عبد الله بن الحسن بن حمزة بن عيسى بن عبيد الله بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ[1].

ونرى كثيرًا من المؤرخين المحدثين يميلون إلى تجريد ابن تومرت من نسبته النبوية، إذ يرونه ـ وقد ادعى المهدية ـ مضطرًا لأن ينتحل النسبة المحمدية، ولكنه بلا شك ينتمى إلى قبيلة بربرية عريقة عن بربريتها، وهى قبيلة مصمودة الكبرى، وشتان ما بين النسبة البربرية والنسبة النبوية[2].

نشأ ابن تومرت فى بلاد السوس التى اشتهرت منذ ظهور الإسلام فى المغرب بحب الدين الحنيف، والسعى لتحصيل علوم القرآن الكريم، وكان أهل بيته ـ كما يقول ابن خلدون ـ أهل نسك ورباط، وقد شب محمد بن تومرت هذا قارئًا محبًّا للعلم، وكان يسمى "أسافو"، ومعناه الضياء، لكثرة ما كان يسرج من القنايل لملازمتها، فمن ذلك نرى أن ابن تومرت نشأ فى بيئة دينية، وأنه انكب على طلب العلم، ولازم بيوت الله للعبادة.

وبعد أن أخذ ابن تومرت بحظ من علوم الدين واللغة رحل إلى الشرق لطلب العلم فى المدينة، ثم الشام، ثم ألقى عصا التسيار بالعراق، حيث جد فى طلب العلم، وكانت بغداد فى ذلك الحين من أعظم الحواضر الإسلامية فى العلم والأدب والحضارة، وقد تلقى ابن تومرت العلم على أعلام العلماء، كأبى بكر الشاشى، والبارك بن عبد الجبار من علماء الكلام والأصول والحديث، وقيل إنه أخذ العلم عن الإمام أبى حامد الغزالى، وقد تأثر بالثقافة الإسلامية فى بغداد وغيرها من الحواضر الإسلامية.

وكان لهذه الثقافة أثر بعيد فى حياة ابن تومرت الذى أخذ على عاتقه أن ينقل إلى المغرب التوحيد الكلامى القائم على التأويل، وأن يصرف الناس

(١) "الدولة الموحدية بالمغرب فى عهد عبد المؤمن". للدكتور/ عبد الله على علام ص ٤٥.
(٢) المرجع السابق.

عن المذهب التقليدى الذى ورثه فقهاء المالكية عن السلف الصالح، والـذى يأبـى التأويل إباءً تامًّا، وعملًا بقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

دعوة ابن تومرت

ظل ابن تومرت سنوات يطلب العلم بالمشرق ثم عاد إلى بلاده حاملًا أفكارًا جديدة وآمالاً بعيدة، ثم حج بيت الله وأخذ ينشر الدعوة الموحدية فى مكة آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، وكانت مكة آنذاك خاضعة للحكم الفاطمى، فلم يكن إذن بد من أن يندد بسوء حال المسلمين فى عهد الفاطميين، ولذلك نرى ابن تومرت يغادر مكة ويتجه إلى الشام، ثم إلى مصر مركز الدولة الفاطمية آنذاك، وقد قيل إنه اتصل بالفقيه أبى بكر الطرطوشى فى الإسكندرية، وهنا أخذت الدولة الفاطمية تطارد ابن تومرت خشية انتشار مبادئه الثورية بين الناس، فركب البحر واتجه إلى المغرب، وقد اختلف المؤرخون فى اسم المدينة التى نزل بها ابن تومرت بعد خروجه من مصر، فيرى ابن خلدون أنه حل بمدينة طرابلس، حيث أخذ ينشر مذهبه الجديد فى التوحيد، الذى يقوم على تأويل المتشابه من القرآن الكريم والحديث الشريف، مشددًا النكير على علماء المغرب فى عدولهم عن التأويل، ثم قام ابن تومرت بتدريس علم التوحيد، لتوضيح مذهبه الجديد، وأخذ الناس بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

على أن علماء المغرب المالكية السلفيين لم يتقبلوا مذهب ابن تومرت، بل قاوموه بعنف، "حتى لقى بسبب ذلك أذايات فى نفسه احتسبها من صالح عمله" على حد تعبير ابن خلدون[1].

(١) ابن خلدون: "العبر" ٦/ ٤٦٧.

وقد ذكر "البيدق" أن ابن تومرت نزل بمدينة تونس، ثم بمدينة قسطنطينة، ثم بمدينة بجاية، ثم اتجه إلى تونس، وكان طلبتها يأخذون العلم عنه، ثم يذكر البيدق أن ابن تومرت أقام بمدينة قسطنطينة، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ثم خرج منها إلى مدينة بجاية[1].

وذكر ابن خلدن أن ابن تومرت التقى بتلميذه عبد المؤمن بن على - بعد خروجه من مدينة بجاية - بقرية تبعد عنها بفرسخ واحد[2].

خرج ابن تومرت من هذه القرية ومعه عبد المؤمن بن على ومحمد البشير الونشريشى، فمر بوجدة ومكناسة وسلا، وانتهى به المطاف أخيرًا بمدينة مراكش حاضرة المرابطين فى ذلك الحين، وكان ابن تومرت فى جميع هذه المدن يدعو إلى مذهبه آمرًا الناس بالمعروف ناهيًا عن المنكر، مشددًا النكير على من يخالف الشرع، وفى الوقت نفسه كان يبشر بمبادئ التوحيد الكلامى سرًّا، كلما اتيحت له الفرصة.

أطلق ابن تومرت على أتباعه اسم "الموحدين" إشارة إلى أنهم هم الذين يوحدون الله حقًّا، وتعريضًا بالدولة المرابطية التى رماها ابن تومرت بالكفر والتجسيم، وأحل قتالها، باعتبار المرابطين - فى رأيه - غير مؤمنين، عملًا بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [3].

ابن تومرت وعلى بن يوسف المرابطى

كان ابن تومرت يمشى فى الأسواق آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، فيتلف المزامير وآلات اللهو، ويريق الخمر وكسر أوانيها، ولم يكن فى ذلك مأذونًا من السلطان ولا من القضاة ولا من المحتسبين التابعين للدولة المرابطية، إذ كان الأمر

(1) "تاريخ الإسلام": د/ حسن إبراهيم حسن: ٤/ ٢٩٥.
(2) ابن خلدون: "العبر" ٦/ ٤٦٧.
(3) المرجع السابق.

بالمعروف والنهى عن المنكر ومقاومة اللهو المنافى للشرع من اختصاص المحتسب وحده، وكانت الحسبة عملًا حكوميًّا هامًّا، من أجل هذا اعتبرت الدولة المرابطية عمل ابن تومرت مخالفًا لقوانين الدولة، وقد نبه ابن تومرت بأعماله الجريئة أذهان الناس، فلم يكن بد من أن يأمر السلطان على بن يوسف بإحضاره، فلما مثل بين يديه نظر إلى تقشفه ورثاثة حاله، فاستحقره، وهان عليه أمره، وقال له: ما هذا الذى بلغنا عنك؟ قال: وما بلغك أيها الأمير؟ إنما أنا رجل فقير طالب للآخرة، ولست بطالب دنيا ولا حاجة لى بها، غير أنى آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأنت أولى من يفعل ذلك، فإنك المسئول عنه، وقد عاب الله تعالى قومًا تركوا النهى عن المنكر، فقال: ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾.

وهكذا نرى السلطان الورع على بن يوسف بن تاشفين قد تأثر بكلام ابن تومرت، وأنه بعث إلى العلماء ليستمعوا بدورهم إلى آرائه، ويختبروا علمه، فإن كان على حق قضت الضرورة باتباعه، وإن كان على باطل فينبغى أن يؤدب.

بيد أن علماء المرابطين ـ برئاسة مالك بن وهيب ـ حقدوا على ابن تومرت؛ لأنهم عجزوا عن مناظرته، فقد اشتهر ابن تومرت بقوة الجدل والمناظرة، حيث قال لهم: قدموا من تقوم به حجتكم، وتأدبوا بأدب أهل العلم، وسلموا عند شروط المناظرة، واتركوا اللجاج، وقدموا أحدكم ممن تثقون بمعرفته وتأدبه، فلما سمع مالك بن وهيب كلام ابن تومرت استشعر حدة ذكائه وقوة عبارته، وأيقن بعجزه وعجز علماء المرابطين عن دفع حججه، فأشار مالك على السلطان بقتل ابن تومرت، وقال مشيرًا إليه: هذا رجل مفسد، لا تؤمن غائلته، ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه، وإن فر إلى بلاد المصامدة وقع لنا منه شر كبير، فلم يستمع إلى نصيحة مالك، ولم يفكر فى قتل ابن تومرت، ولما يئس مالك من حمل السلطان على قتل ابن تومرت أشار عليه بحبسه حتى يموت فى سجنه، فقال على بن يوسف: علام نأخذ رجلًا من المسلمين ونسجنه ولم يتعين لنا عليه حق؟ وهل السجن إلا أخو القتل، ولكن

نأمره أن يخرج عنا من البلد، وليتوجه إلى حيث شاء، فخرج ابن تومرت مع أصحابه متوجهًا إلى بلاد السوس[١].

هرب ابن تومرت

فر ابن تومرت خشية أن يكيد له الفقيه مالك بن وهيب بمراكش، وظل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فاجتمع حوله كثير من الناس، وقيل إنه نزل بأغمات على الفقيه المصمودى عبد الحق بن إبراهيم، وأنه أخبره بمقصده، وما جرى له مع السلطان وعلماء المرابطين، فقال له عبد الحق: هذا الموضع ـ يعنى أغمات ـ لا يحميكم، وإن أحصن المواضع المجاورة لهذا البلد بلدة تينمل، وبيننا وبينها مسافة يوم من هذا الجبل، فانقطعوا فيه برهة ريثما يتناسى الفقهاء ذكركم، فلما سمع ابن تومرت كلمة "تنميل" دار بخاطره أنه رأى هذا فى كتاب، وتفاءل بأنه سوف ينتصر فى هذا الموضع، فاتجه إليه[٢].

ويذكر ابن خلدون أن ابن تومرت لما ذهب إلى أغمات غيّر بها المنكر على عادته، فضاق كثير من الناس به ذرعًا، وأغروا به السلطان على بن يوسف، فلما علم ابن تومرت بذلك خرج هو وأصحابه من أغمات خائفين يبتدرون الطريق بقبيلة سفيوة المصمودية ثم بقبيلة هنتانة، حيث لقيه الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتانى، جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس وإفريقية، ثم تركهم ابن تومرت شطر قبيلة هرغة، فنزل على قومه سنة ٥١٠ هـ[٣].

ولا ريب أن فرار ابن تومرت هائمًا على وجهه، وتوديعه مدينة مراكش، حاملًا بين جنبيه عداء علماء المرابطين الذين عملوا على الإيقاع به؛ حيث حملوا السلطان على طرده، ثم ما لبسه من ضعف هذا السلطان المرابطى الذى أمر بإبعاده، وأبى الانتفاع بعلمه والاستماع إلى مبادئه، كل ذلك قد حد بابن تومرت إلى القيام بعمل

(١) تاريخ الإسلام: د/ حسن إبراهيم حسن، ج ٤ ص ٢٩٧-٢٩٨ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) ابن خلدون: "العبر" ٦/ ٤٧٠.

حاسم إزاء الدولة المرابطية التى سيطر عليها العلماء والنساء فى عهد على بن يوسف، فبنى بهرغة رابطة للعبادة حيث اجتمع عليه الطلبة من القبائل المختلفة، وأخذ يلقى عليهم درسًا من كتابه المرشد، الذى ضمنه مذهبه الكلامى الجديد وألَّف لأتباعه كتبًا فى عقيدة التوحيد التى قام بشرحها بنفسه باللغة البربرية، فذاع ذكره وعظم أمره، واشتدت شوكته وأخذ يفكر فى "المهدية" التى تعتبر أول خطوة فى قيام الدولة الموحدية[1].

بيعة ابن تومرت

ومما يدل على عناية ابن تومرت بإحلال التوحيد الكلامى القائم على التأويل، محل توحيد السلف القائم على التسليم بظاهر الآيات، أنه ـ بعد أن حل بقومه بهرغة وبنى رابطة للعبادة والتدريس ـ أخذ يدرس التوحيد الكلامى جهرًا، بعد أن كان يذيعه بين تلاميذه سرًّا، ولما اجتمع حول ابن تومرت كثير من الطلاب طلب إليهم مبايعته على التوحيد، ثم مهد للخطوة التالية وهى "المهدوية" فأخذ يروى لطلابه الأحاديث التى جاءت فى المهدى المنتظر، وذكر لهم أن ظهوره قد آن أوانه، لوجود هذه العلامات التى وردت فى الأحاديث التى أوردها الشيعة عن المهدى المنتظر، وقد ذكر ابن تومرت أن هذه العلامات تنطبق عليه من حيث اسمه ولقبه ونسبه النبوى، لذلك ادعى هذا الأمر لنفسه، وقال: أنا محمد بن عبد الله، ورفع نسبه إلى النبى ﷺ، ثم خرج بدعوى العصمة لنفسه، ونادى بأنه المهدى المعصوم، وروى فى ذلك كثيرًا من الأحاديث، حتى استقر فى الأذهان أن ابن تومرت هو المهدى، وبسط يده فبايعوه، وقال: أبايعكم على ما بايع عليه أصحاب رسول الله ﷺ.

ويصف ابن القطان بيعة الموحدين لابن تومرت بالمهدوية، فيذكر أنه حين وثق من منعته فى قومه عقد اجتماعًا عامًّا، وخطب فى قومه، قائلًا: "الحمد لله الفعال لما

(١) "تاريخ الإسلام": د/ حسن إبراهيم حسن: ج ٤/ ٢٩٨-٢٩٩ .

يريد، القاضى بها يشاء، لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، وصلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدى الذى يملأ الأرض قسطًا وعدلًا، كما ملئت ظلمًا وجورًا، يبعثه الله إذا نسخ الحق بالباطل، وأزيل العدل بالجور، مكانه المغرب الأقصى، وزينة آخر الزمن، واسمه اسم النبى عليه الصلاة والسلام، ونسبه نسب النبى صلى الله تعالى عليه وعلى ملائكته الكرام المقربين، وقد ظهر جور الأمراء وامتلأت الأرض بالفساد، وهذا آخر الزمان والاسم الاسم، والنسب النسب، والفعل الفعل"[١].

الحكومة الموحدية

كان المهدى ابن تومرت يأخذ أتباعه بالشدة فى احترام القوانين والمواعيد، والتمسك بالصفات الحميدة، كما رسم ابن تومرت لحكومته ما لها من حقوق وما عليها من واجبات، وكان على الموحدين كافة أن يقوموا بأداء حقوق الله قبل كل شىء، وأن يواظبوا على الصلاة فى أوقاتها، وقراءة تلك الأحزاب التى وضعها المهدى، ومطالعة الكتب التى ألّفها فى العقيدة الموحدية، وأن تتلا بصفة مستمرة[٢].

غزوات ابن تومرت

كانت غزوات ابن تومرت التى سبقت "موقعة البحيرة" عبارة عن إخضاع القبائل التى أبت أن تدخل فى الدعوة الموحدية عن طواعية واختيار، فقد أرسل ابن تومرت إلى القبائل المختلفة كتبًا، يدعوها فيها إلى الدخول فى سلك هذه الدعوة، التى تهدف إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وتنقذهم من التردى فى هاوية العقيدة المرابطية التى تؤدى إلى التجسيم والإشراك بالله، وقد حارب ابن تومرت قبائل رجراجة وقبائل درن بجبال الأطلس، يقتل من عصا، ويُؤمِّن من اتبعه وانقاد له، وبذلك استطاع ابن تومرت أن يفتح جميع قلاع جبل درن وحصونه وأوديته، فأطاعته قبائل هنتانة وجنفيسة وهرغة وغيرها.

---

(١) "تاريخ الإسلام": حسن إبراهيم حسن ج ٤/٢٩٩-٣٠٠.
(٢) المرجع السابق.

على أن المؤرخ البيدق يعتبر أن حرب المهدى ابن تومرت ـ ضد قبائل الأطلس ـ عبارة عن سلسلة من حروب ووقائع منفصلة كان يشترك فيها ابن تومرت بنفسه، ويُشَجّ ويحمل من المعركة جريحًا[1].

ومهما يكن من أمر فإن معركة "البحيرة" تعتبر أعنف المعارك التى وقعت بين المرابطين والموحدين فى حياة المهدى، كما تعتبر أعظم موقعة خسر فيها الموحدون فى بادئ أمرهم، وربما كانت الصدمة الشديدة التى هزت كيان المهدى ابن تومرت، وألزمته الفراش حتى لقى ربه يوم الأربعاء، وقيل يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة أربع وعشرين وخمسمائة.

لقد كانت القبائل التى اتبعته تؤمن بأن السماء تؤيد ابن تومرت، ذلك المهدى المنتظر الذى لا يمكن أن يهزم، ولكن المهدى انهزم، وفقد أكثر أصحابه، ومن بينهم قائد جيشه أبو محمد البشير، الذى قام قبل خوضه المعركة بعملية تقشعر منها الأبدان، وهى "عملية التمييز"، لكى يطمئن إلى إخلاص جنوده الذين سيواجه بهم المعركة، وقد قيل إنه أعدم فى هذا التمييز نحو سبعة وعشرين ألفًا من أعز رجال القبائل الموحدية، بتهمة عدم إخلاصهم للمهدى ابن تومرت ودعوته، وسخريتهم من مهدويته، كما قيل بأن قبائل قد أبيدت بأكملها فى هذا التمييز الشنيع، وأكاد أؤمن بأن هذا العمل الفظيع الذى قام به البشير قبل بدء المعركة كان من أهم عوامل إنزال الهزيمة بالجيش الموحدى.

بويع المهدى بالتوحيد والمهدوية سنة ٥١٦هـ ، وكانت وفاته سنة ٥٢٤هـ ، فتكون مدة حكمه إذن حوالى تسع سنوات، ومات ابن تومرت والمرابطون فى أوج قوتهم، وقام بأمر الموحدين بعد المهدى الخليفة عبد المؤمن[2].

---

(١) "الدولة الموحدية بالمغرب فى عهد عبد المؤمن بن على". د/ عبد الله على علام ص ٨٠.
(٢) المرجع السابق.

اهتمام الموحدين بالعمارة

اهتم الأمراء والموحدون بالعمارة اهتمامًا كبيرًا، فأولوها عنايتهم واهتمامهم، وتفننوا فى إنشاء المساجد والقصور، وتركوا آثارًا عظيمة تدل على تفوقهم فى هذا المجال.

وليس فى بلاد المغرب كلها آثار تعادل فى الكثرة والعظمة والجمال آثار الموحدين، والموحدون أصحاب مدرسة فى فن العمارة فى الزخرفة، من أهم خصائصها التبسيط بقدر الإمكان من التكوينات الزخرفية، وتجريد التوريقات من عناصرها الحية، وطبعها بطابع من الورع الذى يعكس اتجاههم الإصلاحى[1].

ولا شك أن العمارة فى العصر الموحدى قد تأثرت كثيرًا بمبادئ الموحدين فى الزهد والتقشف، فكان الموحدون فى عصر عبد المؤمن يتحرجون من الغلو فى الزخرفة، حيث كان فن البناء يتسم بالمتانة، والخلو من التعقيد الزخرفى، سيرًا على منهج ابن تومرت فى التقشف والزهد[2].

مما لا شك فيه أن وجود عدد من الدويلات المستقلة عمل على التنافس فيما بينها. وتسابق الأمراء على النهوض بدولهم، كل دولة تحلم أن يكون لها قصب السبق فى مجال الحضارة والعلوم والفن والبناء وشتى المجالات، فكان أمراء الدويلات يتسابقون فى

(١) د/ السيد سالم، "تاريخ المغرب": ص ٤٧٦.

(٢) د/ عبد الله علام، "الدولة الموحدية بالمغرب": ص ٣٧٢.

استضافة العلماء وتقريبهم، وتشجيع العلوم، وجلب الصناع المهرة والمهندسين والمعماريين، والتنافس فى بناء المساجد والقصور، هذا التنافس قدم بلا شك فوائد عظيمة للحضارة الإسلامية وفن العمارة الإسلامى، وكان دافعًا قويًا وعاملًا مهمًا فى تطور هذا الفن، وأدى إلى تشييد مساجد رائعة وقصور فخمة، وخلّف آثارًا عظيمة ما زالت حتى عصرنا الحاضر، تدل دلالة واضحة على تفوق المسلمين فى مجال الفن المعمارى، وتفردهم عن باقى الأمم فى هذا المجال.

ومن الآثار التى ما زالت باقية حتى الآن قصر الحمراء فى غرناطة، وهو أشهر من نار على علم، وكذلك جامع القرويين، وغير ذلك كثير فى مصر والعراق والشام والمغرب والأندلس.

إن منشآت الموحدين فى العمارة الإسلامية كثيرة، ويظهر فيها بوضوح مدى التأثر بفن العمارة الأندلسية، ولا شك أن غزو الموحدين للأندلس كان عاملًا من عوامل ذلك التأثر.

يقول الدكتور السيد سالم: " إن عصر الموحدين هو العصر الذى توثقت فيه العلاقة الفنية بين المغرب والأندلس، وانتقلت التأثيرات الإسلامية إلى المغرب"[1].

فن العمارة عند الموحدين

كما ذكرت سابقًا فإن أسلوب الموحدين المعمارى - فى بداية ملكهم - كان يميل إلى الزهد والتقشف، والبعد عن المبالغة فى الزخرفة والنقوش، تدفعهم إلى تلك المبادئ الإسلامية التى نشأوا عليها، حيث كانت دعوتهم دعوة دينية، تميل إلى البعد عن زخرف الحياة الدنيا وزينتها، فكانوا يسيرون على منهج ابن تومرت فى الزهد والتقشف.

ولكن نرى أن ذلك الاتجاه قد تغير فى عهد عبد المؤمن بن على الموحدى، فبعد

(١) د/ السيد سالم: "تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى": ص ٧٤٦.

أن كان فى بداية حكمه يسير على نهج ابن تومرت فى البناء، نجد أنه بعد ذلك بدأ يحيد عن هذا المنوال، وينتهج نهجًا آخر فى البناء والميل إلى الزخرفة، ويعود ذلك إلى فتوحات عبد المؤمن واتصالاته بالأندلس.

يقول الدكتور عبد الله علام: "لم يكد عبد المؤمن يفتح بجاية والأندلس والمهدية، ويرى مظاهرها الحضارية الرائعة، حتى طفق ينهل من نمير حضارة هذه البلاد، ويقتبس من مجال عمارتها وبدائع زخارفها، حتى لا يوصم بالتخلف عن الأقاليم التى خضعت له"(١).

من هنا نرى أن الموحدين بدءوا منذ عهد عبد المؤمن بن على فى التخلى عن طابعهم الأول فى العمارة، وبدءوا يسايرون وينافسون الدول والمدن المتقدمة فى نهجها المعمارى والزخرفى، بل وأصبح الموحدون هم السادة فى هذا المجال.

وتعددت منشآت الموحدين الدينية فى مختلف بلدان المغرب بل وحتى الأندلس، فنجد أن يوسف بن عبد المؤمن الذى كان يحب العمارة والبناء، نجد أنه أكثر من أعماله الفنية فى الأندلس، فهو الذى أنشأ قنطرة" طريانة" ومسجد أشبيلية الأعظم وصومعته " لا خيرالدا" ، التى أكملها ابنه يعقوب المنصور، وما تزال هذه الصومعة - بجمالها وسموها ودقة زخارفها وفى تناسق بنيانها - تثير إعجاب المسلمين والمسيحيين على السواء فهى بحق تمثل أسمى ما وصل إليه الفن الموحدى من التقدم والرقى(٢).

للفن الموحدى مميزات تميزه عن الفنون المعمارية الأخرى، وهذه المميزات هى:

١- فى بداية عهد الدولة الموحدية كان الموحدون يعتبرون الفن نوعًا من اللهو، وأن الزخارف الكثيرة والنقوش لا تلائم مبادئهم فى الزهد والتقشف، لذلك ابتعدوا عن كثرة النقش والزخرفة، ومالوا إلى البساطة فى البناء.

---

(١) د/ عبد الله علام: "الدولة الموحدية": ص ٣٧٢ .

(٢) المصدر السابق، ص ٣٨٨.

٢ـ كان الطابع العام ـ الذى يستمد به فن الهندسة المعمارية فى عهد الموحدين ـ لا يرتكز فى أساسه على الفسيفساء والزخرفة الدقيقة الخطوط الهندسية التى امتاز بها الفن فى عهد المرينيين(١).

٣ـ كان الموحدون يعتمدون كثيرًا فى بناياتهم على الجير الذى يكوِّن ثلث مواد البناء، وذلك لميلهم إلى اللون الأبيض.

٤ـ يمتاز الفن الموحدى ببناء الحصون والأبراج، يؤكد ذلك أنهم بنوا فى مدينة الرباط وحدها أربعة وسبعين برجًا(٢).

٥ـ يمتاز الفن المعمارى الموحدى كذلك بالناحية الميكانيكية فى البناء، أو ما يسمى علم الحيل.

٦ـ الاقتباس فى التأثر بالفن المعمارى الأندلسى، وكان ذلك واضحًا وجليًّا فى المنشآت الموحدية، مما أضفى على الفن المعمارى الموحدى سحرًا على سحر، وجمالًا على جمال.

هذه الصفات السابقة كانت تميز الفن المعمارى الموحدى عن غيره من الفنون المعمارية الأخرى.

وبلا شك فإن الموحدين قد اهتموا بفن العمارة اهتمامًا كبيرًا، وكان تقدم الدولة الموحدية فى فن العمارة والزخرفة من الآيات البيّنة على ما بلغته من منزلة رفيعة فى مجال الحضارة(٣).

لقد ترك الموحدون خلفهم آثارًا رائعة تدل على عظمتهم ورقيهم، وليس فى بلاد المغرب كلها آثار تعادل فى الكثرة والعظمة والجمال آثار الموحدين، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك(٤).

(١) د/ حسن إبراهيم حسن: "تاريخ الإسلام" ج ٤/ ٦٢٢.
(٢) المرجع السابق.
(٣) د/ عبد الله علام: "الدولة الموحدية" ص ٣٧٢.
(٤) د/ السيد سالم: "تاريخ المغرب" ص ٧٤٦.

أهم منشآت الموحدين فى مجال العمارة

لا شك أن الموحدين أولوا المنشآت الدينية اهتمامًا خاصًا وعناية كبيرة، وخلّفوا آثارًا عظيمة ومساجد رائعة، فمن أهم المنشآت الدينية فى عصر الموحدين:

١ـ جامع تازا .

٢ـ جامع الكتبية بمراكش.

٣ـ جامع تنميل.

٤ـ جامع حسان ومنارته بالرباط.

٥ـ جامع القصبة بمراكش .

٦ـ جامع الأندلس بفاس.

٧ـ جامع القصبة الكبير بأشبيلية.

أولًا: مسجد تازا

هذا المسجد بناه عبد المؤمن بن على الموحدى سنة ٥٢٩هـ ، وكان معروفًا بحبه للتعمير والبناء، فكان هذا المسجد أول أعماله فى مجال العمارة، ومسجد الموحدين بتازا يشتمل على تسع بلاطات عمودية على جدار القبلة، والبلاطة الوسطى منها أكثر اتساعًا ، ويخترق هذه البلاطات خمسة أساكيب، والأسكوب المحاذى للقبلة أكثر اتساعًا من الأساكيب الأخرى، وكان يعلو المسجد ثلاث قباب، واحدة أمام المحراب واثنتان فى نهاية طرفى هذا الأسكوب، وكانت المئذنة تقع فى الركن الشمالى الشرقى للمسجد[١].

ولصحن الجامع مجنبتان كل منهما تشمل على بلاطين، هما امتداد لبلاطات بيت الصلاة المتطرفة شرقًا وغربًا، وهذا المسجد يشبه فى تخطيطه تخطيط المسجد الجامع بتنميل كل الشبه[٢].

(١) د/ عبد الله علام: "الدولة الموحدية فى المغرب" ص ٣٧٢.
(٢) د/ السيد سالم: "تاريخ المغرب" ص ٧٥٣.

ثانيا: جامع الكتبية بمراكش

بنى هذا الجامع الخليفة عبد المؤمن بن على الموحدى سنة ٥٤١هـ ، وهو ثانى مسجد يقوم بإنشائه بعد مسجد تازا، ويعد هذا الجامع من أروع ما أنشأه الموحدون فى المغرب، وهو يقوم فى مراكش، وقد أنشأه عبد المؤمن، بعد أن أفتاه الفقهاء بإنشاء مسجد آخر؛ لأن الموحدين اعتبروا مراكش مدينة يجب تطهيرها من آثار المرابطين المُجَسِّمة، فقام عبد المؤمن بإنشاء هذا المسجد.

وتتجلى فى هذا المسجد بوضوح التأثيرات الأندلسية فى الفن الموحدى، وقد نقل إليه عبد المؤمن منبرًا عظيمًا ـ كان قد أمر بصنعه فى الأندلس ـ من العود والصندل الأحمر والأصفر، وصفائحه من الذهب والفضة، وأقام للمسجد مقصورة من الخشب، لها ستة أضلاع تسع أكثر من ألف رجل ، وكان الذى تولى صنع المقصورة والمنبر الحاج يعيش المالقى(١).

ويتميز جامع الكتبية بمراكش بأساطينه وصحونه وأقواسه المقرنصة، وبجمال قبابه فى ارتفاع سقوفه وامتداد أروقته، أما منبر الجامع فقد بلغ حدًّا كبيرًا فى الإبداع ويرى تيرا Terras أن هذا المنبر أجمل منبر فى الغرب، بل إنه أروع منبر فى العالم الإسلامى كافة(٢).

وتشبه زخارف جامع الكتبية زخارف جامع تنميل كل الشبه، مما يدل دلالة واضحة على أنه من منشآت الموحدين وليس غيرهم.

وتعتبر منارة جامع الكتبية التى بناها يعقوب المنصورى من أجمل الآثار التى خلفها الموحدون، وتتألف هذه المنارة من طبقات من الغرف المقوسة السقوف أو الحنايا يصل بينها درج لا مرقاة به، ويوصل هذا الدرج إلى الجزء الأعلى من منارة جامع الكتبية، وهذه النقوش الدقيقة قد صممت على شكل الأزهار وسعف

(١) المصدر السابق، ص ٧٤٦.
(٢) د/ حسن إبراهيم حسن "تاريخ الإسلام" ج ٤/ ص ٦٢٣.

النخيل، وتعلو القاعدة السادسة قبة مثمنة الشكل ذات أضلاع ومقرنصات تكون مجموعة هندسية بديعة[1].

ويعد جامع الكتبية أروع مسجد بناه الموحدون فى المغرب، وقد أقام عبد المؤمن جامعًا آخر للكتبية خلافًا لجامع الكتبية الأول، ويغلب على الظن أن الجامع الأول كانت قبلته منحرفة عن الاتجاه الصحيح نحو مكة، فكانت تميل كثيرًا إلى الشرق ، فاضطر عبد المؤمن إلى بناء جامع آخر صحيح القبلة، إلى الجنوب من الجامع الأول، وهدم الجامع الأول[2].

وقد بنى المسجد الثانى سنة ٥٥٣هـ ، ويعلو أسكوب المحراب بهذا المسجد خمس قباب، واحدة أمام المحراب واثنتان على جانب جانبى المحراب، ومعظم أجزاء هذا المسجد من جدران وقباب مشيدة بالأحجار التى ليست مهذبة، ولكن أبوابه الشرقية مبنية بالآجر، أما الأبواب الغربية فقد بنيت بالآجر والحجارة... والجدار الشرقى مشيد بقطع حجرية مصفوفة بفن رائع، وينتهى أعلى الجدار بصف من الآجر، كما أن دعائم بيت الصلاة فى الصحن والعقود مشيدة بالآجر أيضًا[3].

ومئذنة الجامع تنتصب فى الركن الشمالى الشرقى للجامع، بين الجامع القديم والجامع الحالى، وتعتبر هذه المئذنة بحق من روائع فن العمارة الإسلامية، على الرغم من بنائها بقطع الحجارة غير المهذبة[4].

ويبلغ ارتفاع المئذنة ٥٧،٥ مترًا حتى نهاية التفافيح الثلاثة المتوجهة لقبتها، وطول كل جانب منها ١٢،٥ مترًا.

(١) د/ السيد سالم "تاريخ المغرب" ص ٧٥٨.
(٢) د/ عبد الله علام "الدولة الموحدية" ص ٣٧٥.
(٣) المصدر السابق، ص ٣٧٦.
(٤) المصدر السابق، ص ٣٧٦.

ثالثًا: جامع تنميل

كانت تنميل تحظى بمكانة خاصة عند الموحدين، حيث اختارها المهدى بن تومرت مركزًا لدعوته، وهى تضم رفات المهدى وعبد المؤمن وأبى يعقوب وأبى يوسف يعقوب المنصور، وبعد اتساع نفوذ الموحدين وكثرة حشودهم لم تعد تتسع لهم، فقام المهدى بتوسيعها وبنى فيها جامعًا، وبعد أن فتح عبد المؤمن مراكش اتخذها عاصمة لدولته ففقدت تنميل مكانتها السياسية، ولكنها ظلت تحتفظ بمكانتها الروحية عند الموحدين.

وقد قام عبد المؤمن الموحدى ببناء جامع تنميل مكان الجامع القديم الذى بناه المهدى.

وقد بنى هذا المسجد فى سنة ٥٤٣هـ ، ومساحته مستطيلة طولها ٤٨ مترًا، وعرضها ٤٣،٦٠ مترًا، ومحراب المسجد يقسمه بيت الصلاة إلى قسمين متساويين، متعادلين فى البناء والزخرفة بصورة تظهر لأول مرة فى العمارة المغربية، وصحن الجامع صغير بالنسبة بالنسبة لسطح بيت الصلاة، وتحف به مجنبتان شرقية وغربية، كل منها تشتمل على رواقين، وبجدار المحراب فتحتان يمينًا وشمالًا، ويشتمل بيت الصلاة على تسع بلاطات عمودية على جدار القبلة[1].

وتشتمل البلاطات التسع على خمسة صفوف من الدعائم، وتقوم على نقطة تقاطع بلاط المحراب بأسكوبه قبة، ويعلو الأسطوانتين المتطرفتين على أسكوب المحراب قبتان أخريان، وهذه القباب الثلاث مكسوة بالمقرنصات، ولم يبق من هذه القباب الآن سوى قبة المحراب والقبة الشرقية[2].

وللمسجد سبعة أبواب، تتميز بأن مداخلها كلها ـ باستثناء الباب الشمالى ـ تقع بين كتلتين بارزتين من البناء، ويكتنف المحراب إلى اليمين واليسار بابان ضيقان، أحدهما باب الإمام، والآخر باب المنبر، ويماثلان نظائرهما فى مسجدى الكتبية بمراكش والقرويين بفاس[3].

---

(١) د/ عبد الله علام "الدولة الموحدية فى عهد عبد المؤمن" ص ٣٧٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) د/ السيد سالم "تاريخ المغرب" ص ٧٥٥.

ومحراب جامع تنميل من أجمل المحاريب الموحدية، وفيه تتمثل الزخرفة الإسلامية المتناسقة الجميلة، وبه - كما توقعنا - تمتد منها دوائر تشبه رءوس المسالى وتقل الزخارف فى جدار المحراب كلما ارتفعنا حتى نصل إلى قاعدة القبة، ثم تبدأ من جديد تتفتح كالزهرة، وتعبر زخرفة جامع تنميل عن تأثر كبير بالزخارف الأندلسية[1].

رابعًا: جامع ومنارته بالرباط حسان

هذا المسجد بناه يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فى مدينة الرباط، فكان مسجدًا عظيمًا متسع الفناء، له مئذنة شامخة على هيئة منارة الإسكندرية، يُصْعَد إليها بغير درج، وتسمى الآن منارة حسان، وقد فرغ من بنائه سنة ٥٩٣ هـ/ ١١٩٧م[2].

وتخطيط جامع حسان غريب من تخطيط المساجد الجامعة الإسلامية بوجه عام، فبيت الصلاة فيه يتألف من قسمين: قسم أمامى يشتمل على ٢١ بلاطة عمودية على جدار القبلة، يخترقها عرضًا سبعة أساكيب موازية لجدار القبلة، ويكتنف هذه البلاطات صحنان مستطيلا الشكل[3].

وتعد منارة حسان من أروع كبريات المنارات الموحدية، ولم يكن الغرض الذى بنيت من أجله دينيًّا فحسب، بل إن ذلك كان راجعًا لأغراض حربية، بحيث يُستَطَاع مراقبة السفن التى قد تهاجِم مدينة الرباط أو سلا، بواسطة هذه المنارة التى يبلغ ارتفاعها ٦٤ مترًا، والتى يتجلى بها الفن المغربى بصورة عامة، والفن الموحدى بصورة خاصة[4].

(١) د/ عبد الله علام "الدولة الموحدية" ص ٣٧٨-٣٧٩.
(٢) د/ حسن إبراهيم حسن "تاريخ الإسلام" ج ٤/ ص ٦٢٣.
(٣) د/ السيد سالم "تاريخ المغرب" ص ٧٦٣.
(٤) د/ حسن إبراهيم حسن "تاريخ الإسلام" ج ٤/ ٦٢٤ .

خامسًا: جامع القصبة بمراكش

بناه المنصور فى مراكش، وتصميمه غريب الشكل، فصحنه عظيم الاتساع بالنسبة لبيت الصلاة، الذى يضم ١١ بلاطة عمودية على جدار القبلة، تخترقها ثلاثة أساكيب، ويقوم على أسكوب المحراب ثلاث قباب، ومحراب الجامع يقوم على عضادتين، ومئذنة الجامع ليست فى كبر صومعة الكتبية، ومزدان الصومعة ـ ابتداء من ارتفاع السطح ـ بشبكة زخرفية من الفصوص المتقاطعة، مؤلفة من شبكة رائعة من زهرة الزنبق، ويعلو المئذنة بيت للمؤذن، تسقفه قبة مفضضة[1].

سادسًا: جامع الأندلس بفاس

سمى جامع الأندلس؛ لأن جماعة من أهل الأندلس كانوا يعيشون حوله، وساهموا فى بنائه، وبدأ بناؤه سنة ٢٤٥هـ، وهو العام نفسه الذى بنى فيه جامع القرويين، وقد ظل دون اهتمام حتى تولى محمد الناصر، فأعاد بناءه.

وتصميم هذا الجامع غير متناسق وغير منتظم الشكل، ورغم ذلك فهو لا يخلو من أصالة معمارية تتجلى فى الباب الشمالى للجامع، وهو يدل على براعة هندسية فى حذق الزخرفة، ويسود هذا الجامع طابع أندلسى خالص[2].

سابعًا: جامع القصبة الكبير بأشبيلية

بدأ فى بنائه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٦٧هـ فى الأندلس، وقد جمع هذا المسجد بين بساطة الفن الموحدى والفن الزخرفى الأندلسى، وهو الوحيد فى الأندلس من مساجد الموحدين الذى لا تزال آثاره باقية، وهو يدل على مدى تأثر الفن الموحدى بالفن الأندلسى، وهو يضم ١٧ بلاطة من الشمال إلى الجنوب، تتسع

(١) د/ السيد سالم "تاريخ المغرب" ص ٧٦٢.
(٢) المصدر السابق، ٧٦٧-٧٦٨.

لأربعة عشر أسكوبًا، كل بلاطة عرضها ٦٫٤٠ أمتار، وكان يدعم الجدران الخارجية للجامع ركائز ضخمة للدفع، وله ثلاثة أبواب تؤدى إلى مجنبات الصحن[١].

وتتجلى فى هذا المسجد مدى روعة الفن الموحدى والفن الأندلسى ومدى ترابطهما. ولما انتصر يعقوب المنصور على نصارى الأندلس فى موقعة الأرك، أكمل بناء الجامع الأعظم بمدينة أشبيلية، وشيد به منارة عظيمة، قيل إنه ليس فى بلاد الإسلام منارة أعظم منها[٢].

مكانة الفن الموحدى بين الفنون الإسلامية

لا شك أن الموحدين بعد أن تخلوا عن أسلوبهم الأول فى الزهد والتقشف فى العمارة والبناء، وأخذوا يسايرون الأمم الأخرى فى هذا المجال ـ بلغوا شأنًا عظيمًا، وتركوا آثارًا رائعة تنطق بأن عصرهم كان أزهى العصور فى مجال المعمار الإسلامى، تدل على ذلك تلك الآثار العظيمة والزخارف البديعة ومنشآتهم الرائعة، التى جعلتهم يحرزون قصب السبق فى هذا المجال، خاصة بعد أن أولى عبد المؤمن الموحدى اهتمامًا خاصًا للفن المعمارى، وسار على نهجه فى ذلك خلفاؤه فى المغرب والأندلس.

كما أنه يجب ألا ننسى الدور الكبير الذى كان للفن الأندلسى وتأثيره الواضح فى الفن الموحدى، ويبدو ذلك جليًا وواضحًا ـ كما ألمحنا ـ فى منشآت الموحدين وقصورهم، مما أضفى على منشآتهم جمالًا وسحرًا.

أثر الفن العربى فى أوربا

لا ينكر باحث مدى تأثر الفن الأوربى بالفن المعمارى العربى، سواء منه الموحدى أو غيره.

---

(١) د/ السيد سالم "تاريخ المغرب" ص ٧٧٠.

(٢) د/ حسن إبراهيم حسن "تاريخ الإسلام" ج ٤/ ٦٢٤.

يقول "باتيسيه": "إنه لا يجوز الشك فى أن البنائين الفرنسيين أخذوا عن العرب ـ فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلادى ـ كثيرًا من العناصر المعمارية المهمة فى الزخارف الفنية الجميلة، فلم نجد فى كاتدرائية بواى ـ التى هى من أهم البنايات النصرانية ـ بابا مسورًا بالكتابات العربية، أو لم تقم فى "أربونة" وغيرها حصون على حسب الذوق العربى؟"(١).

فالتأثير العربى فى فن العمارة الأوربى واضح وجلى، ولا يحتاج إلى برهان، فالاقتباس خير دليل، وها هم الأوربيون أنفسهم يعترفون بذلك.

يقول" سيوشارل بلان" عما اقتبسه الأوربيون من العرب: "أرى ـ من غير مبالغة فيها لإحدى الأمم من التأثير فى أمة أخرى ـ أن الصليبيين الذين شاهدوا ما اشتمل عليه فن العمارة العربى، من الشبابيك وشرف المآذن والأفاريز ـ أدخلوا إلى فرنسا المراقيب والجرامق والأبراج والأطناف التى استخدمت فى العمارات المدنية والحربية فى القرون الوسطى"(٢).

ويتضح التأثير بالفن العربى بصورة واضحة فى إسبانيا بالذات، فلا تزال الآثار العربية باقية هناك، كما أن بعض بيوتها لا تزال تبنى على الطراز العربى حتى وقتنا الحاضر، ومنها ما هو مقتبس من فن العمارة الموحدية بالذات.

---

(١) د/ مصطفى الرافعى "حضارة العرب" ص ٣٠٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٧.

أسباب سقوط الموحدين

١- هزيمة الموحدين فى معركة العُقاب التى نشبت بينهم وبين النصارى عام ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م، تلك المعركة التى زعزعت الأركان الأندلسية الإسلامية.

والعُقاب قرية فى إقليم جيان على بعد ٥ كيلومترات من كارولينا، وتعرف اليوم باسم "لاس نافاردى تولوسا"، وقد سمى هذا الموضع باسم حصن العقاب والذى كان قد أقامه الأمويون، وما تزال بقايا منه قائمة حتى وقتنا الحاضر تشرف على ساحة تلك الموقعة، والتى كان لها أثر فى تاريخ الصراع بالأندلس بين الإسلام والمسيحية، حيث لم تقم للمسلمين بعدها قائمة، واستولى النصارى بعدها على عدة مدن أندلسية تباعًا.

٢- ضعف الخلفاء الذين تولوا بعد "محمد الناصر"، وازدياد نفوذ الإدارة والولاة، وأول هؤلاء الخلفاء الضعاف هو "أبو يعقوب يوسف بن محمد الناصر" ٦١٠هـ، ففى عهده انتشرت الفتن، وسادت القلاقل البلاد، وكثر الخارجون عليه فى مدن شتى، ولما مات اضطرب الأمن، وعم البلاد جو من الفوضى.

٣- ولقد أعان على انهيار دولة الموحدين عامل الضعف الحربى والسياسى، الذى أصيبت به الدولة على أثر هزيمة "العُقاب" التى أشرنا إليها، فقد توسع النصارى بعد هذه الموقعة فى الأراضى الأندلسية.

٤- الاضطراب الذى أحدثه العرب الهلالية فى الدولة، وغاراتهم المستمرة فى بلاد المغرب.

٥- فوضى الإدارة، وتفكك القبائل الموحدية، مما أضعف سلطانهم.

٦- ظهور الدويلات المناوئة فى طول البلاد وعرضها، فقد نهض بنو حفص فى تونس، وبنو زيان فى تلمسان، وبنو مرين فى فاس، وهؤلاء الأخيرون هم الذين قضوا على الموحدين، بعد أن تمكنوا من احتلال مدينة مراكش العاصمة عام ٦٦٨هـ، وبذلك زالت الدولة الموحدية من الوجود نهائيًّا.

٧- ولا ننسى فى نهاية المطاف أن ننوه بعامل اجتماعى كان له تأثير شديد على قوة الدولة وجنودها، وهو شيوع الترف والملذات واللهو والعبث، تمامًا كما وصل إليه الحال من قبل عند سلفهم المرابطين، وهكذا نفض الجيش ـ وهو قوام الدولة ـ يده من المبادئ العسكرية، وخشونة العيش التى كانوا يتحلون بها.

دولة بنى مرين

(٥٩١ـ٩٥٧هـ/ ١١٩٥ ـ ١٥٥٠م)

ينسب المرينيون إلى مرين من زناتة البربرية، وهم قوم يعيشون أصلًا حياة قبلية بين فجيج وسجلماسة بالمغرب الأقصى، ويمتازون بالميل إلى الصيد والغارات، وكانت لهم جولات فى الجهاد بالأندلس إلى جانب المرابطين، ثم إلى جانب الموحدين على النصارى، فأبلوا فى هذه المعركة بلاءً حسنًا، وحيث أصيب رئيسهم يومئذ محيو بن أبى بكر إصابة بالغة أدت إلى وفاته بعدئذ (٥٩٢هـ ـ ١١٩٥م)، فخلفه على رئاسة بنى مرين ابنه عبد الحق بن محيو، الذى قام مع قومه ببلاد الريف شمال المغرب الأقصى.

لقد أخذ الضعف يدب فى جسم الدولة الموحدية منذ عهد الخليفة يوسف المنتصر، بسبب تهاونه فى أمور الحكم وسوء تدبيره، فاختل حال الدولة، وسادت اللامبالاة بين أمراء الموحدين نحو الدفاع عن الثغور، بالإضافة إلى ظهور بنى زيان فى تلمسان بالجزائر، وقيام الحفصيين فى تونس، كما كان الفرنجة فى الأندلس يشددون حصارهم على المواقع الإسلامية هناك.

وهكذا، انتهز بنو مرين تلك الفرص لضعف الموحدين، وعملوا على إسقاط هذه الدولة وصولًا إلى حكم البلاد، وكان أن وقع الصدام بينهما، فقد التقى الفريقان بوادى هسكور بالمغرب عام ٦١٣هـ / ١٢١٦م، وحيث دارت الدائرة

على الموحدين وجيوشهم، وغنم بنو مرين الجم الكثير من الغنائم والأسلاب، وزحف الأمير عبد الحق بجيشه المرينى إلى تازا، وانتصر على من بها من الموحدين، ولكنه سقط قتيلًا فى وقعة "وادى سبو" عام ٦١٤هـ / ١٢١٧م فتولى الأمر ابنه أبو سعيد عثمان الذى نجح فى إخضاع قبائل هوارة وزكارة ومكناسة وتسول وبطوية وسدرانه وبهلولة ومديونة، وفرض الخراج على هذه القبائل، كما سبق لأبية الاستيلاء على أمصار المغرب، مثل فاس التى أضحت العاصمة لبنى مرين، ومكناسة وقصر كتامة ثم اغتيل عثمان عام ٦٢٨هـ / ١٢٤٠م، فخلفه أخوه أبو معرف محمد بن عبد الحق، الذى سار على نفس نهج أخيه فى اقتفاء آثار الموحدين، والقضاء على بقاياهم الذين كانوا قد انتشروا فى عدة بقاع من المغرب الأقصى، حتى خضعت البلاد لبنى مرين خضوعًا تمامًّا منذ عام ٦٢٢هـ.

هذا، وقد أمد بنو حفص بتونس المرينيين بالمال والعتاد لتقوية دولتهم الفتية، وهؤلاء كانوا يدعون من جانبهم للحفصيين الذين سبقوهم بتأسيس دولتهم فى "إفريقية"، ولما قويت شوكة الدولة المرينية أبطلوا الدعوة للفحصيين، وأعلنوا استقلالهم، وخاصة عقب استيلائهم على مراكش عاصمة الموحدين عام ٦٦٨هـ، وبذلك انقطعت الإمدادات الحفصية للمرينيين من مال أو عتاد حربى، بل وقع الصدام بين الدولتين بعدئذ.

ويعتبر عهد أبى يوسف يعقوب المنصور من أنضر عهود المرينيين، فهو الذى فتح مراكش، فكان فتحه هذا بداية فعلية لدولة بنى مرين، أولئك الذين ركزوا نشاطهم عقب ذلك فى مجالين مهمين كتب لهم فيها النصر المظفر، **فأولهما**: مجال الجهاد فى الأندلس، حيث نهض المرينيون لنجدة مسلمى الأندلس ضد القشتاليين، وحققوا انتصارات باهرة ضد الإسبان، **وثانيهما**: تجاه المغرب الأوسط والأدنى، حيث خاضوا عدة معارك ضد بنى عبد الواد فى الجزائر، وضد بنى حفص فى تونس، حتى أتيحت لهم فرص السيادة على المغرب الأقصى والأوسط، فقد كانت

دولة بنى زيان قد ظهر عليها الضعف بتلمسان، وأصابها الوهن، فزحف عليها بنو مرين واستولوا عليها.

وتجدر الإشارة بهذه المناسبة إلى أن بنى مرين قد قاموا بدور مهم فى مساعدة بنى الأحمر ملوك غرناطة، فقد غادر يعقوب بن عبد الحق فاس ٦٦٨ هـ، وعبر البحر إلى الأندلس واكتسح بجيوشه الحقول والوديان، وأوقع الرعب فى قلوب الإسبان، ثم عاد إلى المغرب عام ٦٧٤هـ، ثم عبر إلى الأندلس مرة أخرى عام ٦٧٦هـ، حيث حاصر أشبيلية وقرطبة، وغزا شريش وجيان، كما استولى على عدة حصون حربية حول هذه المدن، وقد جاز البحر بعدئذ مرتين، أولاهما عام ٦٨١هـ، والأخرى عام ٦٨٤هـ، وفى المرة الأخيرة هذه مرض بقصره فى الجزيرة الخضراء بالأندلس، أواخر ذى القعدة من العام نفسه، ثم توفى أول المحرم من العام التالى، ونقل جثمانه إلى المغرب، حيث دفن فى شالة بالرباط، وبويع ابنه أبو يعقوب يوسف بن أبى يوسف يعقوب، الذى سار على نهج أبيه، بنشر الأمن فى ربوع البلاد، والجهاد فى الأندلس، ثم تولى بعده ابنه أبو ثابت عامر بن أبى يعقوب يوسف.

هذا، وفى عهد الأمير أبى سعيد تمكَّن المرينيون من الاستيلاء على المغرب الأوسط، حيث قصد أبو سعيد هذا إلى تلمسان محاربًا، وانتزعها من موسى بن يغراسن العبد الوادى، كما عبر إلى الأندلس مجيبًا لنداء بنى الأحمر ضد النصارى، ثم توفى أبو سعيد عثمان عام ٧٣١هـ (١٣٣٠م)، وخلفه ابنه أبو الحسن على بن عثمان، الذى استولى على تونس من أميرها الحفصى أبى يحيى عام ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م، ثم تولى ابنه أبو عنان بن أبى الحسن، الذى استولى على بجاية ثم قسطنطينة من يد الأمير محمد بن أبى زكريا الحفصى، وبهذا ملك بنو مرين كلًّا من المغرب الأقصى والأوسط وشطرًا من المغرب الأدنى.

لكن الأيام دول، فقد أصاب الوهن بنى مرين، حينما تقلد أمور الدولة سلاطين من الضعف بمكان، وفقدت المملكة المغرب الأدنى ثم المغرب الأوسط، وانحسرت فى المغرب الأقصى، بل إن البرتغاليين بدءوا يغيرون على الشواطئ

المغربية من ناحية الشمال ومن ناحية الغرب، وكان هذا نتيجة طبيعية لضعف الدولة وانحلالها.

ولقد ترتب على ضعف دولة بنى مرين أمران خطيران:

أولهما: طمع البرتغاليين فى الدولة، فهاجموا الثغور، وتمكنوا من الاستيلاء على سبتة عام ٨١٨ هـ، وعلى أصيلا عام ٨٧٦هـ، وعلى طنجة عام ٨٩٦هـ، وعلى مدينة أسفى، وبعض نواحى السوس فى السنة نفسها.

ثانيهما: طمع الوزراء والقواد فى السلطة، وأخذوا يستبدون بأمور الدولة، وكان العهد الأخير من بنى وطاس، وهم بطن من بطون بنى مرين، ولهم طموح فى الحكم منذ نشأة الدولة، فلما ضعف جانب بنى عبد الحق قفز الوطاسيون، وأصبح لهم سلطان.

* * *

ملوك بنى مرين

عبد الحق بن أبى خالد محيو	٥٩١هـ/ ١١٩٥م
عثمان بن عبد الحق	٦٢٤هـ/ ١٢١٧م
محمد (الأول) بن عبد الحق	٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م
أبو بكر بن عبد الحق	٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م
يعقوب بن عبد الحق	٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م
يوسف بن يعقوب	٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م
عامر بن أبى عامر بن يوسف	٧١٦هـ/ ١٣٠٦م
سليمان بن أبى عامر بن يوسف	٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م
عثمان (الثانى) بن يعقوب	٧١٠هـ/ ١٣١٠م
على بن عثمان	٧٣١ هـ/ ١٣٣١م
فارس بن على	٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨م
محمد بن فارس (ولى ثم عزل فى الحال)	٧٥٩ هـ/ ١٣٥٨م
محمد السعيد بن فارس	٧٥٩ هـ/ ١٣٥٨م
إبراهيم بن على بن عثمان	٧٦٠ هـ/ ١٣٥٩م
تاشفين بن على	٧٦٢ هـ/ ١٣٦١م

عبد الحليم بن عمر بن عثمان الثانى	٧٦٣ هـ/ ١٣٦١م
محمد (الثانى) بن أبى عبد الرحمن بن على	٧٦٣ هـ/ ١٣٦٢م
عبد العزيز بن على	٧٦٨ هـ/ ١٣٦٦م
محمد (الثالث) بن عبد العزيز	٧٧٤ هـ/ ١٣٧٣م
أحمد بن إبراهيم	وليا الحكم معًا، ثم انفرد أحمد بالحكم بعد مضى ثمانى سنوات
عبد الرحمن بن أبى يفلوسن بن عمر	٧٧٦ هـ/ ١٣٨٤م
موسى بن فارس	٧٧٦ هـ/ ١٣٨٤م
المنتصر بالله بن أحمد	٧٨٨ هـ/ ١٣٨٦ م (٤٣ يومًا فقط)
محمد (الرابع) بن أبى الفضل بن على	٧٨٨ هـ/ ١٣٨٦م
أحمد بن إبراهيم (للمرة الثانية)	٧٨٩ هـ/ ١٣٨٧م
أبو فارس بن أحمد	٧٩٦ هـ/ ١٣٩٣م

* * *

فترات اضطراب وانحلال

عبد العزيز بن أحمد	٧٩٩ هـ/ ١٣٩٦م
عبد الله بن أحمد	٨٠٠ هـ/ ١٣٩٧م
عثمان (الثانى) بن أحمد	٨٠١ هـ/ ١٣٩٨م
عبد الحق بن عثمان (الثانى)	٨٣١ هـ/ ١٤٢٧م

هذا، ولقد تعدد إسقاط الخلفاء من بنى مرين، ويرجع هذا الأمر إلى غلبة الطباع القبلية عليهم، فكان هذا سببًا منهم فى ضعف سلطان الدولة، يضاف إلى هذا السبب ما وقع من حروب المرينيين من إمارتى تلمسان وتونس، إضافة إلى تكتل المسيحيين ضدهم فى معاركهم الجهادية بالأندلس، ولا سيما تلك الهزيمة الشنعاء التى أصابتهم فى معركة "طريف الكبرى"، التى لم يحاول بعدها بنو مرين أن يعبروا البحر ويشتبكوا بعد ذلك فى معارك مع النصارى فى صورة جيوش نظامية، وإن كانوا لم ينقطعوا عن المناوشات بالشواطئ الأندلسية ضد المسيحيين، ولكن فى صورة عصابات تأخذ غالبًا شكل القرصنة البحرية.

* * *

ملوك بنى وطاس

(٨٧٦هـ/ ١٤٧١م)

أبو عبد الله محمد (الأول) الشيخ	٩٠٧ هـ/ ١٥٠٤م
محمد (الثانى) الملقب بـ " الشيخ البرتغالى"،	(لم يتفق المؤرخون على
وهو ابن محمد الأول	بداية حكمه ونهايته)
أحمد بن محمد (الثانى)	٩٣٦ هـ/ ١٥٢٩م
محمد (الثالث) بن أحمد	٩٥٧ هـ/ ١٥٥٠م

يتميز عهد الوطاسيين بسقوط مملكة غرناطة آخر معاقل الحكم الإسلامى بالأندلس بالتسليم فى ٢ يناير ١٤٩٢م، على يد الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا، ولجوء آخر ملوك بنى الأحمر أبو عبد الله إلى ملوك بنى وطاس فى فاس، حيث عاش ذليلًا فى كنفهم بقية أيامه.

كذلك يتميز هذا العهد الوطاسى بغارات الفرنجة على الساحل الشمالى لإفريقية وكذا الغربى.

كما اشتغل الوطاسيون بحروبهم مع الفرنجة المغيرين، وأهملوا أمور الدولة الداخلية، الأمر الذى تمكَّن معه الأشراف السعديون من الظهور على مسرح السياسة المغربية، ابتداء من سنة ٩٥٠هـ ، حيث التف الناس من حولهم،

ينشدون فيهم تخليص البلاد من شر الفرنجة البرتغاليين، واستقرار الأمن فى ربوع المملكة.

وهكذا بدأ سلطان الأشراف يطغى على الوطاسيين، ويتسع ملكهم شيئًا فشيئًا، حتى تم لهم الأمر فى النهاية، وهم قوم ينتسبون إلى النبى ﷺ، وحيث نهضوا إلى إقامة مراكز للمقاومة ضد البرتغاليين، ونادوا بالجهاد ضد أعداء الإسلام الفرنجة، وخرجوا من واحات إقليم درعه، ميممين شطر الجنوب الشرقى لجبال أطلس حيث تأهبوا لملاقاة البرتغاليين وقتالهم.

* * *

دولة الأشراف "السعديين"

(٩١٥هـ/ ١٥٠٩م حتى الآن)

ينحدر الأشراف الحاكمون بالمغرب من أصل عربى، فهم من ينبع من أرض الحجاز، وينسبون إلى النبى ﷺ عن طريق" النفس الزكية" مرورًا بالحسن بن على كرم الله وجهه، وهم فرعان حكما المغرب:

- الأشراف السعديون أو الحسنيون (٤١٥-١٠٦٩هـ / ١٥٠٩ - ١٦٨٥م).
- الأشراف الفلاليون أو العلويون أو السجلماسيون (١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م) حتى الآن.

ويلاحظ أن هناك ست سنوات فارقة بين حكم الفرع الأول، وبين حكم الفرع الثانى، ومرد ذلك إلى ظهور بعض الزعامات القبلية وأصحاب الطرق الصوفية خلال تلك الفترة الفاصلة، ومن تلك الزعامات أسرة " الشبانات" التى تمكنت من اغتيال آخر خليفة من خلفاء الأشراف السعديين، ومن ثم استولوا على مقاليد السلطة، إلا أن الأشراف الفلاليين كانوا لأولئك" الشبانات" بالمرصاد، حتى تمكنوا من القضاء عليهم، وانتزاع سلطة الدولة منهم.

ونعود إلى " السعديين" لنرى أنهم سموا بذلك فيما بعد؛ لأنهم من نسل السيدة حليمة السعدية مرضعة الرسول ﷺ، وحيث يذكر" السلاوى" صاحب كتاب "الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى" أن السبب فى نزوح أجدادهم من الحجاز إلى

المغرب" أن أهل درعة كانت لا تصلح ثمارهم، وتعتريها العاهات كثيرًا، فقيل لهم لو أتيتم بشريف إلى بلادكم - كما أتى به أهل سجلماسة - لصلحت ثماركم كما صلحت ثمارهم، وقد كان أهل سجلماسة قد جاءوا بالمولى الحسن بن قاسم بن محمد ابن أبى القاسم من أرض ينبع، فأتى أهل درعة بالمولى زيدان بن أحمد وهكذا أذاع الأشراف السعديون انتسابهم إلى بيت الرسول ﷺ عند بدء قيامهم، وظل أسلاف السعديين مقيمين بدرعة إلى أن ظهر منهم أبو عبد الله محمد القائم بأمر الله أول سلاطينهم، ونشأ على عفاف وصلاح، وحج البيت الحرام، ثم رجع إلى المغرب، وأعلن دعوته عقب عودته، وانضم إليه أتباع كثيرون، إذ نجح أبو عبد الله فى استثارة حماسهم الدينى ونخوتهم، فى الوقت الذى ضعفت فيه دولة بنى وطاس، وتفاقمت الأمور بتدخل البرتغاليين فى الشئون الداخلية للبلاد، وطعمهم فى الاستيلاء عليها.

ويضيف السلاوى بهذه المناسبة" أن سبب قيام أبى عبد الله القئم أن أهل السوس أحاط بهم العدو الكافر، ونزل بجوانبهم من كل جهة، حتى أظلم الجو، واستحكمت شوكة البرتغال، وبقى المسلمون فى أمر مريج، لعدم أمير تجتمع عليه كلمة الإسلام؛ لأن بنى وطاس فشلت ريحهم يومئذ فى بلاد السوس" .

" وإنما كان لهم الملك فى حواضر المغرب، ولم يكن لهم منه بالسوس ما دهمهم من تفاقم الأحوال، وكثرة الأهوال، وطمع العدو فى بلادهم، ذهبوا إلى الشيخ أبى عبد الله بن مبارك الأقادى، فذكروا له ما هم فيه من افتراق الكلمة، وانتشار الجماعة، وكلب العدو على مباكرتهم بالقتال ومراوغتهم، وطلبوا منه أن يعقدوا له البيعة وتجتمع كلمتهم عليه، فامتنع من ذلك، وقال إن رجلًا من الأشراف من درعة يقول: " إنه سيكون له ولولديه شأن" . وهكذا ظهرت دعوة الأشراف السعديين بإقليم السوس عام ٩١٥هـ، والذى كان قد احتله البرتغاليون، فتجمع مسلمو هذا الإقليم حول الشريف أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن السعدى، حيث خاض بهم معارك ضد الفرنجة، وفى الوقت الذى أخذ فيه نجم الوطاسيين فى الأفول، كان نجم السعديين الأشراف فى صعود بفضل الانتصارات التى أحرزوها ضد

المسيحيين، وصار الناس يرفعون إليهم زكواتهم وأعشارهم ويبايعونهم، وتمكَّن السعديون بجيشهم من اقتحام" تارودانت" بجنوب المغرب واحتلالها" ثم حاولوا غزو" أجادير" ، ولكنهم لم ينجحوا فى افتتاح المدينة.

ولما توفى أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن السعدى عام ٩٢٣هـ خلفه على السلطة ولداه: أبو العباس أحمد، ومحمد الأصغر، حيث تمكنا من فرض سلطانهما على عدة مدن فى جنوب المغرب، ثم وصلا إلى مراكش التى استوليا عليها عام ٩٣٢هـ/ ١٥٢٥م.

وقد حدثت موقعة حربية بين كل من أبى العباس السعدى وأبى العباس أحمد بن محمد الوطاسى عام ٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م، وانتهى أمر المعركة بعقد معاهدة بين الطرفين، على أساس تقسيم البلاد بينهما، فيكون للسعديين الجزء الواقع من تاولا إلى السوس، ولبنى وطاس من تاولا إلى المغرب الأوسط، ثم حدثت موقعة تالية هزم فيها الوطاسيون عام ٩٤٣هـ.

ثم توالى على رئاسة السعديين نخبة من رجالهم، ثم أخذوا على عاتقهم ضم مدن الوطاسيين واحدة تلو الأخرى، فقد استولوا على مكناسة، ثم على فاس عام ٩٥٦هـ ، ولكنهم فقدوا هذه الأخيرة عام ٩٦١هـ من جراء تحالف أبى حسون الوطاسى مع الأتراك الذين كانوا فى المغرب الأوسط آنئذ، مما اضطر محمد الشيخ السعدى إلى أن يستنفر القبائل من حوله بمراكش ويجهز عسكره وجنوده، وزحف نحو فاس، حيث حاصرها حصارًا شديدًا، وظفر بخصمه أبى حسون الوطاسى أسيرًا فقتله فى العام نفسه ، وبمقتله وضع السلطان السعدى يده على المغرب الأقصى دون منازع، وانتهى أمر الوطاسيين للأبد.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن السعديين كان يهدد سلطانهم يومئذ خطران عظيمان وهما الوجود التركى فى الجزائر، واحتكاكه بالمغرب فى عدة محاولات أملًا فى احتلاله أو اقتطاع بعض من مدنه، كما حدث عندما حاول حسن بن خير الدين باشا صاحب تلمسان أن يفتح فاس عام ٩٦٥هـ ، ولكنه انهزم فى موقعة وادى

اللبن قرب فاس، ولعل هذا ما يفسر لنا عدم اتخاذ السعديين مدينة" فاس" عاصمة لهم؛ حيث قرب المنطقة حولها من مواقع الأتراك فى الجزائر، وتفضيل" مراكش" عليها لذلك، وهكذا عادت مراكش بعد ثلاثة قرون من النسيان والإهمال، لتصبح عاصمة المغرب الأقصى فى عصر الأشراف السعديين.

معركة وادى المخازن

لقد حدثت هذه المعركة قرب" القصر الكبير" بشمال المغرب، فى ٤ أغسطس ١٥٧٨م، بين كلّ من البرتغاليين والسلطان محمد المتوكل بن عبد الله الغالب بالله، والذى انحاز إلى جانب الإسبان نكاية فى عمه السلطان الشرعى عبد الملك السلطة، وتصادق مع "فيليب الثانى" ملك إسبانيا يومئذ، وعقد المعاهدات مع كلّ من فرنسا وإنجلترا.

أما خبر المعركة فمؤداه أن " دوق سباستيان" ملك البرتغال قد عمد إلى غزو المغرب الأقصى بدافع دينى صليبى، وألّف لذلك جيشًا من عشرين ألف مقاتل معظمهم من البرتغاليين، إلى جانب كتائب من إسبانيا وألمانيا وإيطاليا، وبعض المغاربة من أنصار المتوكل، وحط الجيش كله فى طنجة دون مقاومة، ثم زحف نحو أصيلا، ثم نحو القصر الكبير، وهنا واجه النصارى جيش عبد الملك الذى كان يفوق الجيش النصرانى، حيث كان يتألف من حوالى اثنين وخمسين ألف مقاتل معظمهم من الفرسان، والتقى الجيشان عند" وادى المخازن" وانجلت المعركة عن هزيمة جيش الدوق وحلفائه، وموت ملك البرتغال نفسه وحليفه المتوكل غرقًا، ومن عجيب المصادفات أن يموت السلطان عبد الملك بمرض قضى عليه، ولموت هؤلاء الملوك الثلاثة سميت المعركة "بموقعة الملوك الثلاثة" وقد أحرز جيش المغاربة نصرًا عظيمًا، فقد قضى على معظم جيش النصارى، كما أسر العديد منهم، وهكذا تعد هذه المعركة من المعارك التى يفخر بها تاريخ النضال المغربى ضد المستعمرين وخلفائهم.

السلطان المنصور الذهبى

(٩٨٦-١٠١٢هـ/ ١٥٧٨-١٦٠٣م)

هو السلطان أحمد بن محمد الشيخ، ولى السلطة عقب وفاة أخيه عبد الملك، حيث بويع فى ساحة المعركة المذكورة، وتسمى بالمنصور، وقد ناله من هذا الانتصار الحربى فى وادى المخازن ثراء عظيم، بالنظر إلى الغنائم العظيمة، وافتداء النبلاء بالأموال الجمة، ومن هنا لقب بـ" الذهبى" ، وتوالت على عهده الوفود من أوربا تخطب ودّه، فازدهرت فى عهده مدينة مراكش بالسفراء ازدهارًا عظيمًا، وقد أولى "الذهبى" من جانبه اهتمامًا بالغًا بالنهضة العلمية والفنية والأدبية، وازدهرت على أيامه التجارة، واتخذ نخبة من رجال الإدارة والقادة والعلماء، ناشرًا سياسته التى قامت على الحزم فى إدارة شئون المملكة بمعونة من حوله من هؤلاء.

وقد عنى" المنصور الذهبى" بعمارة العاصمة" مراكش" فاستقدم إليها المهرة من المهندسين والفنيين والصناع من بلاد أوربا وغيرها من البلاد.

وأنشأ قصره المعروف بـ" قصر البديع" فى قصبة السعديين عام ٩٨٦هـ (١٥٧٨م)، وهو قصر آية فى فن المعمار وهندسة البناء، حتى لقد أفاض كثير من المؤرخين والأدباء فى التعريف به، فجاءت أوصافهم قاصرة عن الإحاطة بما اشتمل عليه من روعة وبهاء وأبهة وجمال.

ويذكر للمنصور من المنشآت العامة المعقلان اللذان أنشأهما بفاس، وهما المعروفان عند أهل المغرب بالبساتين، كما أقام حصنين بثغر العرائس شمال المغرب. كذلك يذكر للمنصور إعداد الجيش وتنسيقه على غرار الجيش التركى، فقد اصطنع من الأتراك الموالى الذين درجوا فى بلاط نعمته، منهم قائد القواد، ومنهم صاحب الخزائن، وقسَّم الجيش إلى أقسام تركية التنظيم، حيث كان ينوى الاستيلاء بهذا الجيش العظيم على بلاد السوادن، بعد أن كان أسلافه من المرابطين والموحدين قد وثقوا علاقاتهم بهذا القطر، بعد أن أوفدوا إليه العلماء والفقهاء لتوعية الشعب السودانى، لكن" المنصور الذهبى" فضل الاستيلاء على هذه البلاد، واستغلال ثرواتها الطبيعية والزراعية، وهكذا شرع فى فتح السودان الغربى منذ عام ٩٨٩هـ (١٥٨١م).

لقد نجح جيش المنصور فى افتتاح السودان، وولى على مدنه الولاة من قبله، وقد أكسبه هذا شهرة عظيمة، وخطبت الوفود من أنحاء شتى وده، وجىء من السودان إليه بالذهب الخام، كانت ببابه كل يوم ١١٤ مطرقة تضرب الدينار، دون ما هو مُعَدّ لغير ذلك من صوغ الأقراط والحلى وشبه ذلك، ولأجل ذلك لقب بـ"الذهبى" لفيضان الذهب فى زمانه.

لكن ـ للأسف ـ لكل شىء آفة، فإن هذه الشهرة التى اكتسبها المنصور أقلقت بال سلاطين القسطنطينية، أولئك الذين كانوا يحلمون بفرض سلطانهم السياسى والدينى على المغرب الأقصى، ففتحوا عليه باب القراصنة البحريين الأتراك، وهنا تحالف "المنصور" مع كل من الإسبان والإنجليز، الذين كانوا يتوقون إلى خطب وده، وقد حاولت كل من هاتين الدولتين استقطاب" المنصور" إلى جانبها لسبب أو لآخر، ولكنه كان نافذ البصيرة، مرجحًا لمصلحة بلاده، الأمر الذى أملى عليه أن يحالف الإنجليز عندما اتضحت له نوايا الإسبان فى التوسع على حسابه، وطمعهم فى الذهب السودانى، بل كاد يتم بينه وبين الملكة إليزابيث اتفاق على غزو إسبانيا

وغزو الهند الإسبانية، إلا أن القدر كان قد عاجل المنصور بالموت عام ١٠١٢هـ (١٦٠٣م).

وإنه ليذكر بالفضل للمنصور أنه بفتحه الأقاليم السودانية ـ قد هيأ للإسلام أن ينتشر فى تلك البقاع النائية، بعد أن سبقه المرابطون والموحدون بالبعثات الدينية التى هيأت له مثل هذه الفرصة الإسلامية.

أهم أعمال المنصور

١- إنفاقه معظم الأموال التى آلت إليه من وراء افتداء الأسرى فى سبيل تقدم الدولة اقتصاديًا وثقافيًا واجتماعيًا وعمرانيًا، وقد ساعده على ذلك أيضًا الذهب الذى جىء به إليه من بلاد السودان عقب فتحه لها.

٢- تقوية الجيش والأسطول الذى أصبح ساترًا منيعًا ضد الغارات البحرية الإسبانية والبرتغالية.

٣- إقامته بعض الحصون المنيعة فى بعض المواطن الإستراتيجية وفى فاس بوجه خاص.

٤- إنشاؤه قصر البديع فى العاصمة" مراكش" .

٥- فتحه بلاد السودان ونشر الإسلام فى تلك المناطق نتيجة هذا الفتح.

٦- عقده المعاهدات مع الملوك المعاصرين، سواء منهم المسلمون أو النصارى بصفة خاصة.

سلاطين الأشراف السعديين

أبو عبد الله القائم بأمر الله بن عبد الرحمن بن على	٩١٥ هـ/ ١٥٠٩م
أبو العباس أحمد الأعرج	٩٢٣ هـ/ ١٥١٧م
أبو عبد الله محمد الأول المهدى بن القائم	٩٥٥ هـ/ ١٥٤٨م
عبد الله المتوكل محمد المهدى	٩٦٤ هـ/ ١٥٥٦م
محمد (الثانى) بن عبد الله المتوكل	٩٨١ هـ/ ١٥٧٣م
عبد الملك (الأول) بن محمد المهدى	٩٨٣ هـ/ ١٥٧٥م
أحمد (الأول) بن محمد المهدى	٩٨٦ هـ/ ١٥٧٨ م
محمد (الثالث) بن أحمد الأول	١٠١٢ هـ/ ١٦٠٣م
عبد الله الواثق / زيدان الناصر } أخوان لمحمد خرجا عليه ونافساه.	١٦٠٣م
زيدان وحده	١٠١٦ هـ/ ١٦٠٨م
عبد الملك (الثانى) بن زيدان	١٠٣٩ هـ/ ١٦٢٩م

الوليد بن زيدان	١٠٤٠ هـ/ ١٦٣٠م
محمد (الرابع) بن زيدان	١٠٤٥ هـ/ ١٦٣٥م
أبو العباس أحمد (الثانى) بن عبد الملك	١٠٦٤ هـ/ ١٦٥٤ م
إلى	١٠٦٩ هـ/ ١٦٥٨ م

تدهور دولة الأشراف السعديين وسقوطها

لقد شبَّت الفتنة من أجل وراثة السلطة بين أبناء المنصور الذهبى، وكانوا ثلاثة تنازعوا فيما بينهم عليها، وهم: مولاى زيدان الذى بايعه أهل فاس وأعيانها، وأبو فارس الواثق بالله الذى تمت بيعته فى مراكش، أما ثالثهم فهو محمد الشيخ المأمون، الذى كان قد سجنه أبوه فى مكناس عام ١٠١١هـ (١٦٠٢م) أى قبيل وفاته بعام واحد، لفسقه وفجوره، وسفكه للدماء وللأضرار التى لحقت بالناس على يديه، ثم أطلق سراحه بعد وفاة والده.

وقد انحصر مجال التنافس بين المأمون وزيدان، بعد أن قتل عبد الله بن المأمون عمه أبا فارس سنة ١٠١٩هـ (١٦١٠م)، وتمكَّن المأمون من الاستيلاء على مدينة فاس، بفضل حلفائه الإسبان الذين استولوا على مدينة العرائش نظير مساعدتهم له، بينما احتفظ مولاى زيدان بإقليم مراكش، وعلى هذا فقد أضحى المغرب الأقصى عبارة عن ولايتين مستقلتين: إحداهما شمالية حاضرتها فاس، والأخرى جنوبية حاضرتها مراكش، الأمر الذى نتج عنه شيوع حالة من الاضطراب والفوضى فى ربوع البلاد شمالًا وجنوبًا، بالرغم من المحاولات المستميتة التى بذلها مولاى زيدان لتوحيد الصف، ولكن ظل الوضع على هذا الانقسام بين الولايتين حتى مقتل العباس آخر سلاطين الأشراف السعديين عام ١٠٧٠هـ (١٦٥٩م).

وتجدر الإشارة إلى أنه ـ فى الوقت الذى انهارت فيه دولة الأشراف السعديين ـ

أخذت إسبانيا تولى وجهها شطر المغرب الإسلامى للثأر من هذه البلاد المغربية التى وقفت ضد حروب الاسترداد، وساعدت مسلمى الأندلس ضد النصارى، وقد واتت فرصة الثأر بسقوط غرناطة عام ١٤٩٢م، فقد أوصى الملكان الكاثوليكيان فرناندو وإيزابيلا بغزو إفريقيا الشمالية، وقد تبلورت هذه الفكرة بإبرام المعاهدة الإسبانية البرتغالية عام ١٤٩٤م فى التحالف ضد الموانى المغربية واقتسامها، فقد سعت البرتغال إلى توسيع نطاق تجارتها البحرية، وصولًا إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح، فاحتلت عدة سواحل مغربية، وأنشأت ميناءى الجديدة وأكادير، بينما ركز الإسبان على السواحل الشمالية، وكان قصدهم الأساسى هو القضاء على الروح الدينية، التى طالما أقضت مضاجعهم فى الأندلس.

هذا، وقد عم المغرب يومئذ جو من الخلاف حول أصحاب السلطة المختلفين، الأمر الذى أتاح للإسبان والبرتغاليين فرصة الاستيلاء على بعض المدن المهمة بالمغرب، فمنذ عام ١٦٤٠م كانت إسبانيا تحتفظ بسبتة والعرائش والمعمورة، بينما فرضت البرتغال سيطرتها على طنجة وفرغان، ثم انتقلت السيادة على طنجة من البرتغال إلى إنجلترا عام ١٦٦١م، إذ قدمتها كاترين ملكة البرتغال هدية إلى زوجها شارل الثانى ملك إنجلترا، وأصبحت بذلك تحت السيطرة البريطانية[١].

فى مثل هذا الجو الجديد من الخلافات بين الأسرة الواحدة، واستغلال الأجنبى لهذه الفرقة واستيلائه على سواحل المغرب، قامت حركات مضادة لأصحاب السلطة، وذلك على يد أبناء عمومة الأشراف أنفسهم، أولئك الذين تمكنوا من السيطرة على الأمور، واعتلائهم عرش السلطة، وهم المعروفون بالأشراف الفيلاليين أو العلويين، وهم الحاكمون حتى وقتنا الحاضر، ومنذ عام ١٠٧٥هـ (١٦٦٤م) إلى الآن.

(١) المغرب الإسلامى (كتاب الشعب ١٣٩) للدكتور عبد العزيز السيد سالم.

دولة الأشراف العلويين

(١٠٧٥هـ / ١٦٦٤م - حتى الآن)

هم أعقاب أبى القاسم بن محمد بن الحسن بن على، وأبناء عم الأشراف السعديين، قدم جدهم من ينبع إلى سجلماسة، بعد فترة وجيزة من استقرار السعديين فى درعة، وقد عاش العلويون فى سجلماسة دون أن يمارسوا أى نشاط سياسى، حتى كانت القلاقل التى عمت بلاد المغرب أوائل القرن السابع عشر الميلادى، بعد فترة من موت مولاى زيدان.

ويذكر المؤرخون أن مولاى الشريف كان مشهورًا فى أقاليم الصحراء، فقصده أهل سجلماسة ليقوم زعيمًا عليهم ومدافعًا عن بلدهم، فقبل زعامتهم عام ١٠٤١ هـ ، وبعد أربع سنوات تخلى عن ولايتهم، وقال لهم: ولّوا من شئتم فى هذه الولاية خوفًا من معصية الله. فتولى أمرهم مولاى الرشيد محمد أكبر أولاده، وكان شجاعًا مقدامًا، فقد استولى على عدة مدن فى شمال المغرب الشرقى، ثم اتجه إلى الجزائر فاستولى على وهران ومنطقة تلمسان، وعاد ليبسط نفوذه على فاس عام ١٠٧٧هـ (١٦٦٦م)، كما استولى فى العام التالى على مكناسة، وفى شهر صفر من عام ١٠٧٩هـ دخل مراكش، وبذلك تمت له السيطرة على بلاد المغرب الأقصى بأكملها.

هذا وبالرغم من تلك الفترة القصيرة التى قضاها فى الحروب للتمكين لسلطته،

إلا أنه قام بتنفيذ بعض المنشآت، فمنها إنشاؤه قنطرة وادى سبو على أقواس أربعة عام ١٠٨٠هـ قرب فاس، كما أمر بإنشاء القصبة الجديدة فى فاس، وقصبة الخميس بالمدينة نفسها ، بالإضافة إلى تشييده لمدرسة الشراطين.

توفى مولاى الرشيد بمدينة مراكش عن عمر يناهز الثانية والأربعين فى شهر ذى الحجة من عام ١٠٨٣هـ (٩ إبريل ١٦٧٢م) فخلفه أخوه أبو النصر إسماعيل الذى كان قد ولاه على مكناسة حاكمًا.

مولاى إسماعيل أبو النصر
(١٠٨٣ــ١١٣٩هـ/ ١٦٧٢ ــ ١٧٢٧م)

لقد بايعه أهل المغرب عامة، عدا أهل مراكش، فاضطر إلى محاربة أهلها، حيث هزمهم، ودخل المدينة عنوة، واستجاب لرغبة سكانها فى منحهم الأمان، ومن ثم أقبلت قبائل منطقة مراكش مبايعة له.

كان سنه عندما تولى أمر المغرب حوالى ستة وعشرين عامًا، وهو من أشهر سلاطين الأشراف العلويين بالمغرب، فقد استطاع خلال فترة حكمه التى استطالت أكثر من خمسين عامًا أن يشيد دولة ثابتة قوية، يهابها الجميع، كما عمل على توسيع رقعة الدولة، فاستولى فى السودان على البلاد التى لم يتسن للمنصور الذهبى أن يستولى عليها، وجلب من هناك أعدادًا من السود لتعليمهم الصناعات المختلفة، ويتدرج بهم فى سلك الجندية عامًا بعد عام، بعد أن يتقنوا فى كل فترة عملًا يتصل بالجندية، حتى يتقن الجندى فى النهاية الفروسية، ثم يسمح له بالزواج.

وإلى جانب هذه الطائفة ألَّف المولى إسماعيل جيشًا آخر من العرب عرف بجيش الودايا، وهو ينقسم إلى ثلاث فرق: فرقة أهل السوس، وفرقة المغافرة، وفرقة الودايا، ونقل هذه الفرق إلى مكناسة الزيتون، ثم قسمهم بعدئذ إلى فريقين، فريق استقر بمكناسة، وفريق أرسله إلى فاس.

أعماله الحربية

لقد تمكَّن إسماعيل من استرداد كافة المدن الساحلية المغربية التى كان الإسبان والبرتغاليون قد استولوا عليها فيما سبق، مثل المعمورة التى سميت بالمهدية، والتى استعادها فى (ربيع الثانى ١٠٩٢هـ/ ٣ مايو ١٦٨١م)، ومثل طنجة التى انتزعها من أيدى الإنجليز عام ١٠٩٥هـ (١٦٨٤م)، والعرائش التى استردها فى ١٨ المحرم ١١٠١هـ (أول نوفمبر ١٦٨٩م)، وأصيلا التى استولى عليها عام ١١٠٢ هـ (١٥٩٢ م)، بالإضافة طبعًا إلى العديد من الأسرى، وخاصة الإسبان والبرتغاليين الذين سخرهم فى بناء سور مكناسة، وبخلاف الغنائم وأدوات الحرب، وعليه فلم يبق بيد الإسبان سوى مدينة مليلية وسبتة وقلعة الحسيمة وقلعة بلسن والبريجة، ويذكر التاريخ حصاره لمدينة سبتة زمنًا اضطر بعده إلى التخلى عن الحصار لمواجهة بعض الفتن التى نشبت فى مملكته، بعد أن كان قد شيّد خارج سبتة رباطًا وقصرا ومسجدا، مما يثبت إصراره على فتح المدينة. ومن زاوية أخرى نرى أن المولى إسماعيل عمل على مواجهة الأتراك وصدهم عن مطامعهم فى المغرب، بحيث لم يتمكن هؤلاء من التسلل إلى البلاد، بفضل فرق المجاهدين والسود التى أَلَّفها السلطان، بل لقد حاول أن يوسع سلطان مملكته بالاستيلاء على المناطق الغربية من الجزائر، فقام بحملة لهذا الغرض ولكن لم يقيض له فيها الانتصار، فيعيد الكرة تلو الكرة دون جدوى، حتى كان عهد ابنه زيدان، الذى تمكن من الاستيلاء على تلمسان وعلى المنطقة المحيطة بها.

المشاكل التى واجهها فى الداخل

وتجدر الإشارة إلى أن المولى إسماعيل قد واجه عدة ثورات بالمغرب، ولكنه قضى عليها قضاء مبرمًا، مثل ثورة ابن أخيه ابن محرز بفاس ومراكش سنة ١٠٨٣هـ ، وثورة الدلائين سنة ١٠٨٧هـ ، وثورة ابنه محمد العالم سنة ١١١٤هـ ، وثورة بربر فازار سنة ١٠٩٥هـ و١١٠٣هـ، وثورة أبى النصر سنة ١١٢٣هـ بأرض السوس.

ونظرًا لكون هذه الثورات يقع معظمها حول كلّ من مدينتى فاس ومراكش فإن المولى إسماعيل قد تجنب الإقامة بهاتين المدينتين، وأقام مدينة مكناس بموضع مكناسة الزيتونة، وجعلها عاصمة له، وكانت هذه المدينة من الأمصار القديمة بالمغرب والتى جددها الموحدون، وأولاها بنو مرين من بعد عناية خاصة، وأنشأوا بها قصبة، وشيدوا بها المدارس والزوايا والأربطة، ولما عزم السلطان على إنشائها من جديد، استقدم لها ما لا يقل عن ٢٥ ألف أسير إسبانى وبرتغالى.

بناء مكناس

حول بناء هذه العاصمة الإسماعيلية، يقول المؤرخ أبو القاسم بن أحمد الزيانى: "واشتغل السلطان ببناء قصوره بمكناسة، حيث أَلِفَها، وأعجبه هواؤها، وكان لا ينبغى بها بدلًا، وهدم ما يلى القصبة من الدور، وأمر أهلها بحمل أنقاضها، وهدم الجانب الشرقى من المدينة، وزاده فى القصبة القديمة، ولم يبق أمامه إلا الفضاء فجعله كله قصبة، وبنى سور مدينة مكناسة، وأفردها عن القصبة، وجلب الصناع من آفاق المغرب وحواضره، وأطلق أيديهم فى البناء، فلم يبلغ بذلك غرضه، فوجه للقبائل أمرًا بتوريد الفعلة، فكانت كل قبيلة تعطى عددًا معلومًا فى كل شهر، وأسس المسجد الأعظم داخل القصبة بجوار قصر النصر الذى أسسه أيام أخيه الرشيد، ثم أسس الدار الكبرى بجوار ضريح الشيخ المجذوب فى سنة ١٠٨٨هـ، وكان السلطان يقف على بناء قصوره بنفسه، وكلما أكمل قصرًا أسس آخر".

"ولما ضاق مسجد القصبة بالناس أسس المسجد الأخضر بالقصبة وجعل بابه للمدينة، وجعل لهذه القصبة عشرين بابًا عاديًّا، وفوقها بساتين للمدافع والمهارز، وجعل داخل القصبة بركة عظيمة تسير فيها الفلايك للفرجة، وجعل بها جانبًا للزرع، وجعل بجواره سواقى للماء، فى غاية العمق بقبوة، وجعل بها إصطبلا لخيله وبغاله، طوله ثلاثة أميال مسقف الدايرة بالبرشلة، قيل كان به مربط ١٢ ألفًا من الخيل...، وبنى فوقه قصرًا أسماه المنصور، فيه عشرون قبة، فيها برج مشرف على

بسايط مكناسة وجبالها، وغرس بجوار هذا الإصطبل بستانًا على طوله، فيه من أنواع الأشجار كل غريب، ويداخل هذه القصبة نحو الخمسين قصرًا، كل قصر بمسجده وحمامه وميضاته، ولا يقتصر لغيره، وهذا شيء لم يبن فى دولة عربية ولا أعجمية، لا فى الجاهلية ولا فى الإسلام، وكان عنده بأبواب قصوره على ما ذكروا ألفان ومائتان من الخصيان السود، وكل واحد بمن يخدمه من السودان".

ويذكر المؤرخون حول اهتمامات السلطان المولى إسماعيل بالناحية العسكرية إنشاءه أكثر من ست وسبعين قلعة بالمغرب.

توفى مولاى إسماعيل بعد أن حكم حوالى سبعة وخمسين عامًا وله من الذرية ٣٥٠ ولدًا وبنتًا[1]، ثم خلفه ابنه وولى عهده أبو العباس أحمد المعروف بالذهبى، وبانقضاء عهد المولى إسماعيل يدخل المغرب فى عصر الانحلال، وقيام الحروب الأهلية، والأطماع الاستعمارية فى العصر الحديث أخيرًا، حتى كان الاستقلال للمغرب الحديث عام ١٩٥٦م.

(١) جاء بديوان الخدمى (دفاتر الحالة المدنية) خلاف السقط.

ملوك الأشراف العلويين

الرشيد بن محمد	١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م
إسماعيل السمين بن محمد	١٠٨٢هـ/ ١٧٢٧م
أحمد الذهبى بن إسماعيل	١١٣٩هـ/ ١٧٢٧م
عبد الله بن إسماعيل	١١٤١هـ/ ١٧٢٩م
محمد الأول بن عبد الله	١١٧١هـ/ ١٧٥٧م
يزيد بن محمد	١٢٠٤هـ/ ١٧٨٩م
هشام بن محمد	١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م
سليمان بن محمد	١٢٠٩هـ/ ١٧٩٥م
عبد الرحمن بن هشام	١٢٣٨هـ/ ١٨٢٢م
محمد الثانى بن عبد الرحمن	١٢٧٦هـ/ ١٨٥٩م
الحسن الأول بن محمد	١٢٩٠ هـ/ ١٨٧٣م
عبد العزيز بن الحسن	١٣١٢هـ/ ١٨٩٥م

عبد الحفيظ بن الحسن	١٣٢٥هـ/ ١٩٠٨م
يوسف بن الحسن	١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م
محمد بن يوسف	١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م
(محمد بن عرفه) نصبته رغما عن الشعب	١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م
محمد بن يوسف (للمرة الثانية) حيث عاد	
بضغط الشعب المغربى فور استقلال المغرب	١٣٧٤هـ/ ١٩٥٦م
الحسن الثانى (حاليا)	١٣٧٩هـ/ ١٩٦١م

الفصل الثالث

المغرب الأوسط (الجزائر)

حول تسمية "الجزائر"

عرفت الجزائر قديمًا بالمغرب الأوسط، ولما جاء العثمانيون إلى هذه البلاد جعلوا عاصمتهم مدينة ساحلية تسمى "جزائر بنى مُزْغَنَة" لوجود عدد من الجزر الصغيرة أمامها، وقد تم ردم ما بين هذه الجزر حتى تكون من هذه المجموعة مدينة كبيرة، أطلق عليها مدينة الجزائر، ثم أطلق الاسم فيما بعد على القطر كله[1].

وعلى هذا فيمكن إطلاق "المغرب الأوسط" على هذه المنطقة تاريخيًّا حتى القرن السادس عشر، كما يطلق عليها الجزائر بدءًا من القرن الحالى، والمغرب الأوسط جزء من الدولة الإسلامية فى العهد الأموى والعباسى، ولما حدثت حركات الاستقلال فى بعض الولايات الإسلامية وخاصة فى المغرب الإسلامى - مثل الأمويين فى الأندلس والأدارسة فى المغرب - فقد حدث نظير ذلك فى المغرب الأوسط، وإن كان هذا لم يَحُل بين المغرب الأوسط وبين الاتصال بمركز الخلافة ببغداد، كما أن هذا الاستقلال لم يكن ليقطع الصلة بين المغرب الأوسط وبقية دول شمال إفريقيا.

(١) انظر: "جزائر بنى مزغنة"، طبعة Desalni، الطبعة الثانية بالجزائر ١٩١١م ص ١١٥، ثم طبعة أحدث بالجزائر أيضًا عام ١٩١٣م، ص ٢٢٦.

دولة الرستميين

(١٦٠ ـ ٢٩٦هـ / ٧٧٦ ـ ٩٠٨م)

هى دولة خارجية أسسها عبد الرحمن بن رستم بن بهرام الفارسى عام ١٧٧ هـ، ويذهب ياقوت الحموى وابن عذارى المراكشى إلى أن رستم هذا ينسب إلى أبيه بهرام مولى عثمان بن عفان، بينما يرى ابن خلدون أنه عبد الرحمن بن رستم من أبناء رستم أمير فارس بالقادسية.

وذكر أنه قدم إلى إفريقية مع العرب الفاتحين، حيث تولى عبد الرحمن بن رستم على القيروان من قبل أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المغافرى.

ولقد ساهم عبد الرحمن بن رستم فى صد الحروب التى قامت فى المنطقة ضد بعض الخوارج الذين التفوا حول عبد الرحمن بن رستم فى تاهرت، وبايعوه بالإمامة عام ١٦٠هـ فقوى نفوذه بهم، وانتشر سلطانه بين قبائل البربر، كما ارتبط بدولة بنى مدرار فى سجلماسة برابطة المصاهرة، وهكذا توطد ملك عبد الرحمن.

وتعتبر الدولة الرستمية أبرز حركة استقلالية بالمغرب الأوسط، وقد شملت كافة أنحاء البلاد الجزائرية، عدا بعض المناطق جنوبًا وشرقًا، وإلى مؤسس هذه الدولة القاضى عبد الرحمن يرجع الفضل فى تأسيس مدينة تاهرت التى جعلها عاصمة لملكه.

توفى عبد الرحمن بن رستم المؤسس عام ١٦٨هـ، وتولى بعده ابنه عبد الوهاب، الذى ثارت عليه جماعة من خوارج الأباضية، ولكن تمكن من هزيمتهم، كما خرجت عليه جماعة من الرستميين يعرفون باسم "النكار"، وقد انتصر عليهم كذلك، بفضل مصاهرته لشيخ قبيلة هوارة، حيث انضمت إليه تلك القبيلة لُواته بأسرها، وهكذا استطاع أن يوطد دولته ويؤمن ملكه.

وقد توفى عبد الوهاب عام ٢٠٨هـ، وتولى بعده ابنه ميمون أبو سعيد، وحيث سار على نهج والده فى سياسته ودهائه، فقد عقد معاهدة صداقة بينه وبين الأمير عبد الرحمن الأوسط فى الأندلس، واتفقا على الوقوف فى وجه العباسيين بالمشرق والأغالبة فى تونس، وكان أن عاث ميمون فى مدينة العباسية بإفريقية وخرّبها.

ولقد ازدهرت عاصمة ملك الرستميين "تاهرت" على عهد ميمون، وعم الرخاء البلاد، مما كان له تأثير على حياة الحاكم نفسه، فقد انغمس فى الترف والملذات، الأمر الذى بدأت معه نهاية الدولة، لا سيما وأن الفرس الذين كان يعتمد عليهم ميمون قد اصطدموا بقبيلة زناتة، وكان لهذا تأثيره فى تقويض أركان الدولة من جانب آخر.

توفى ميمون أبو سعيد الملقب بـ "أفلح" عام ٢٥٨هـ.

ولقد تولى أبو بكر الابن إمامة الدولة بعد أبيه، وكان ميالا إلى تعاطى الأدب والشعر، فوكل أمور سياسة الدولة إلى أخيه أبى اليقظان، وصهره محمد بن عرفه، ولكن الناس ضاقوا بهذا الوضع فثاروا عليه، واضطروه إلى الخروج من العاصمة "تاهرت"، ونصّبوا أخاه أبا اليقظان مكانه، وبقى هذا على رأس الدولة، مديرًا لشئونها على أكمل وجه حتى توفى عام ٢٨١هـ، فبويع ابنه أبو حاتم يوسف بالإمامة، ولكنه لم يصمد أمام الأحداث أكثر من عام، حيث اشتبك مع أهل "تاهرت" مرارًا، وحيث كانوا قد أقاموا على الدولة يعقوب بن أفلح بن عبد الوهاب، ثم خلعوه بعد أربع سنوات، وقدموا عليه أبا حاتم أبى اليقظان، الذى

بقى فى الحكم قرابة ست سنوات، إلى أن صرعه بنو أخيه عام ٢٩٤هـ وأخيرًا تولى يقظان بن أبى اليقظان الملك لفترة لم تتجاوز العامين، حيث قتله أبو عبد الله السيفى عام ٢٩٦هـ، وبذلك سقطت دولة الرستميين بالجزائر.

هذا ويذكر التاريخ عن الرستميين أنهم طائفة من الخوارج، ويرتكز مبدؤهم على الشورى وانتخاب الإمام، وقد اشتهرت دولتهم بالعدل، وشيوع الأمن فى ربوع البلاد، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

أئمة الرستميين

القاضي عبد الرحمن بن رستم ١٦٠هـ/ ٧٧٦م

عبد الوهاب بن عبد الرحمن ١٦٨هـ/ ٧٨٤م

الأفلح بن عبد الوهاب ٢٠٨هـ/ ٨١٧م

أبو بكر بن الأفلح ٢٥٨هـ/ ٨٧١م

محمد بن الأفلح (أبو اليقظان) ؟ ؟

يوسف بن محمد ٢٨١هـ/ ٨٩٤ م

يعقوب بن الأفلح ٢٩٤هـ/ ٩٠٦ م

أبو حاتم بن أبى اليقظان ١٦٠هـ/ ٧٧٦ م

فترات الاضطراب المتداخلة

يقظان بن أبى اليقظان

العلاقات السياسية الخارجية للرستميين

علاقتهم بالعباسيين

ارتبطت علاقة الرستميين بالعباسيين بالبغضاء لعاملين:

١ - كان العباسيون يعتبرون المغرب معبرًا شرعيًّا لهم.

٢ - العداء التقليدى بين السنة والأباضية.

من هنا كان الخلفاء العباسيون يحاولون القضاء على الرستميين، وعلى كل جهودهم.

وقد نجح العباسيون فى القبض على أبى اليقظان بن أفلح، حيث كان يقوم بمناسك الحج فى مكة.

لكن العلاقات ببغداد وتاهرت بقيت قائمة من الناحية الثقافية والفكرية، فقد لجأ الأئمة الرستميون إلى بغداد، كما أمدت البصرة الرستميين بالثقافة الإسلامية الأباضية.

علاقتهم بمصر

كانت مصر على علاقة قوية مع الرستميين، ذلك أن الكثير من المصريين كانوا على مذهب الأباضية - كما لعبت مصر دور الوسيط بين الشرق والغرب من جهة التجارة، كما نقلت الحضارة المصرية إلى تاهرت.

بيد أن العلاقة توترت أيام الطولونيين على يد العباس بن طولون، إلى أن انتهت بالقبض عليه، وأعيد إلى مصر سنة ٢٦٨هـ.

علاقتهم بالأغالبة

لم تتسم هذه العلاقة بالطابع العدائى، فقد عقد أول اتفاق بين الرستميين والأغالبة للتعايش السلمى سنة ١٩٧هـ / ٨١٣م، ولكن هذا الاتجاه تعرض للضعف سنة ٢٣٣هـ / ٨٥٣م ببناء مدينة العباسية لمناهضة تاهرت، بل لقد اندلعت الحرب بين الأغالبة والرستميين، إلا أن العلاقة الثقافية ظلت باقية بين تاهرت والقيروان، وتمثلت فى هؤلاء العلماء والأدباء الذين كانوا يفدون من تاهرت إلى القيروان لتحصيل العلم.

علاقتهم بالأدارسة

الأدارسة علويون معتدلون، مجاورون للرستميين من جهة الغرب، وهذا ما يتفق مع ميول الرستميين السياسية، فبنيت علاقة الطرفين على حسن الجوار، ويمثل الرستميون الحراسة الشرقية لدولة الأدارسة.

لكن ساد الفتور هذه العلاقات أيام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، لموقف قبيلة مِغْراوة وبنى يقرن من بنى رستم، وهاتان القبيلتان كانتا خاضعتين للأدارسة.

حضارة الرستميين

إن مفهوم الحضارة هو اتساق المجتمع فى إطار من النظام، سواء من ناحية هيكل المجتمع، أو نظام حكمه وإدارته، أو من ناحية التطور العمرانى أو الاقتصادى، أو من الناحية الفكرية والفنية.

والدولة الرستمية كدولة عربية قامت فى فترات ازدهار الدويلات الإسلامية فى المشرق والمغرب، لها ملامحها الغالبة من الفكر الإسلامى الصميم.

فمن ناحية نظام الحكم

اتسم نظام الحكم فى مطلع قيام الدولة بالبساطة الشديدة، فحاكم الدولة كان يسمى الإمام، وهو لقب مشتق من الأباضية، والأباضيون عملوا بنظرية الشيعة عن الإمامة الظاهرة والإمامة المستترة.

وكان الأباضيون يختارون الإمام وفق شروط معينة، منها البيعة، والعلم، وألا يكون الإمام من قبيلة لا تمنعه إذا حاد عن العدل، ومنها الكمال الأخلاقى، والنزاهة فى التصرفات الشخصية.

وإذا كانت نظرية الإمامة هى التى أقامت الدولة الرستمية باختيار الأباضيين عبد الرحمن بن رستم إمامًا للدولة، فإن عبد الرحمن نفسه قد جعل الدولة وراثية، باستخدام أسلوب عمر بن الخطاب ﷺ، فرشح سبعة من بعده لتكون المفاضلة فيما

بينهم، واختار من بينهم ابنه عبد الوهاب، وكان اختياره لستة زاهدين فى الحكم، فانتخب ابنه عبد الوهاب من بعده إمامًا، وهكذا جرى الحال إلى نهاية عصر الرستميين، وقد مرت الدولة من الناحية السياسية الداخلية طبقًا لسنة التطور بأئمة أقوياء، فقد نعمت الدولة فى عصورهم بالاستقرار السياسى والاجتماعى، ومرت كذلك بأئمة ضعاف، تفشت فى عهودهم العصبية القبلية، وعمت الفوضى أرجاء البلاد.

أما من الناحية الإدارية

فقد قسمت الدولة إلى عمالات فى شرق الدولة وغربها، يحكمها الولاة الذين أسندت إليهم أعمال جباية الضرائب، كما أنشأوا جهازًا للشرطة للمحافظة على الأمن، ووضعوا نظامًا للقضاء يعتمد على المذهب الأباضى، كما اتخذ الرستميون الوزراء، واعتمدوا نظام السجلات وتأمين الوثائق، وهذه النظم استمدت جذورها من الفكر الفارسى فى الإدارة والحكم.

أما من الناحية الاقتصادية

فقد ازدهرت الدولة ازدهارًا كبيرًا فى الصناعة والزراعة والتجارة، تبعًا للاستقرار السياسى للدولة الرستمية، وقد كانت البلاد الرستمية تمتلك روافد الأنهار والأراضى الزراعية الفسيحة والوديان، وقد اعتنى الرستميون بشق القنوات التى توصل المياه إلى أقاصى الدولة.

وكانت أهم الزراعات: الكتان، والسمسم، والحبوب، والفاكهة، وكانت الصناعة تقوم على المواد الخام المتوفرة فى بلاد المغرب، فاشتهرت صناعة المنسوجات الحريرية والكتانية والصوفية.

واستخدم الرستميون القوة الدافعة للماء، فأقاموا عليها الطواحين، وعرف الرستميون التعدين (صناعة المعادن).

كذلك اعتمد الرستميون على التجارة فى تسويق منتجاتهم الزراعية والصناعية، وقامت بينهم وبين جيرانهم، وبينهم وبين الأمويين فى الأندلس العلاقات التجارية، حتى لقد حقق الرستميون أرباحًا طائلة من التجارة، كما عرف الرستميون سك العملة الخاصة بهم، وعرفوا لأنفسهم أنواعًا من المكاييل والموازين، خاصة بهم فى معاملاتهم التجارية.

أما من الناحية الفكرية

كان الرستميون أباضيين، لذلك نشأ الفكر الأباضى بينهم، وكان قائمًا على المناظرة بين أهل المذاهب الأخرى كالمعتزلة والسنة والشيعة، مما أدى إلى نشاط الحركة الفكرية، وهذا جعلهم على احتكاك بمختلف الثقافات والبيئات العلمية فى المغرب والأندلس ومصر وبغداد، ولقد أسسوا مكتبة ضخمة تحوى أعدادًا من كتب العلوم والفنون والآداب، وسمح الرستميون للعلماء من جميع المذاهب - حتى من غير المسلمين - بمزاولة العلوم التجريبية.

هذا، وكانت المرأة فى العصر الرستمى تشارك فى الحركة الفكرية، وبرز منهن العالمات بالحساب والفلك وعلوم الدين.

وهكذا نرى أن الدولة الرستمية قد عاشت فى حضارة سامية من جميع نواحيها، سياسية أو اقتصادية أو عسكرية أو ثقافية.

* * *

الفاطميون وآل زيرى

كان ميلاد الدولة الفاطمية فى تونس، ومن هناك أخذت دعوة الفاطميين فى الانتشار ناحية الغرب والشرق من الشمال الإفريقى، وقد حدث أن قام أحد زعمائهم المسمى عبد الله بتخريب مدينة "تاهرت" عاصمة بنى رستم، واستولى على الجزائر، ثم تابع الفاطميون زحفهم غربًا حتى بلغوا شواطئ المحيط الأطلنطى، وعليه أضحت الجزائر ولاية فاطمية مذهبًا وسياسة.

وما إن تم للفاطميين الاستيلاء على مصر حتى بادر المعز لدين الله إلى نقل عاصمة ملكه إلى القاهرة عام ٣٦٢هـ بدلا من "إفريقية".

ولقد أناب المعز عنه بالجزائر بلكين بن زيرى الصنهاجى، حيث تولى حكم الشمال الإفريقى، واتخذ بلكين هذا من مدينة "المهدية" مقرًّا لحكمه، وعين ابنه المنصور مكانه وقد عهد هذا إلى أخيه حماد بن بلكين بولاية الجزائر، وهكذا آل أمر الجزائر إلى بنى حماد، حيث استقلوا بها، وتكوّنت فيها دولتهم.

ويذكر ابن خلدون أن حمادًا دعا للخلفاء العباسيين مستظلًا بظلهم سياسة منه، وقتل طائفة الرافضة، وترحم على أبى بكر وعمر.

بنو حماد

(٣٩٨ ـ ٥٤٧ هـ/ ١٠٠٧ ـ ١١٥٢م)

تولى حماد بن بلكين ولاية الجزائر فى عهد أخيه المنصور، وظل يحكمها باسمه طيلة حياته، وبعد وفاة المنصور تولى ابنه باديس الذى أقرّ عمه حمادا على الملك، وعهد إليه بحرب قبيلة زناتة البربرية، والوقوف فى وجه القبائل التى ثارت على حكم بنى زيرى، وفى مقابل هذا سمح له بحكم كل مدينة يفتحها، فحقق حماد انتصارات ضد الثوار، واختط لنفسه مدينة "القلعة" بجبل كتامة، وأحاطها بالأسوار، وجعلها عاصمة لملكة، وأنشأ بها المساجد والأسواق والفنادق، فاتسعت المدينة، وقصدها طلاب العلم وأولو المعرفة وأرباب الحرف والصناعات المختلفة، ولكن سرعان ما حقدت بطانة باديس على حماد، ووشوا به عند عمه فأظلم الجو بينهما، وعليه فقد طلب باديس من عمه أن يتنازل عن بعض ما تحت يده من ممتلكات إلى المعز بن باديس، ولكنه أَبَى، بل وأعلن العصيان، واعتنق مذهب أهل السنة، وترك التشيع، ثم كان أن نشبت الحروب، فرسخ سلطان حماد، وبدأت دولتهم فى الاستقلال، ثم حدث نوع من الوفاق والتقارب بين آل حماد وآل زيرى، بمقتضاه أن يعود آل حماد إلى المذهب الشيعى، وأن يبقى سلطانهم فى كلّ من الجزائر والمغرب.

هذا، ويذكر أن باديس كان قد ضرب الحصار قبيل وفاته على قلعة بنى حماد، فلما مات رحلت جنوده عنها إلى المهدية، حاملين تابوت باديس على أكتافهم.

ويرى الأستاذ "جورج مارسييه" فى كتابه عن "المغرب الإسلامى والمشرق فى العصر الوسيط" أن استقلال حماد وخلعه طاعة باديس والحاكم بأمر الله الفاطمى معًا ـ أمر طبيعى، فقيام الدولة الحمادية جاء نتيجة طبيعية للحوادث، إذ أن المناطق التى كان يحكمها بنو زيرى عند رحيل المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر كانت تعد مهمة ثقيلة بالنسبة لبلكين وابنه المنصور؛ لأنها كانت تشتمل على المغرب الأدنى (إفريقية) والمغرب الأوسط "الجزائر"، واضطر المنصور إلى أن يعهد إلى أخيه حماد ابن بلكين بولاية المغرب الأوسط، وبطبيعة الحال طمع حماد فى هذه الولاية لنفسه، فلما حاول باديس استرجاع هذه الولاية اعترضه حماد، وخرج عن طاعته وطاعة الحاكم بأمر الله فى آن واحد.

وهكذا نجد أن المعز بن باديس يغادر منطقة حكم بنى حماد، ويتجه إلى القيروان، حيث اضطهد الشيعة فى "إفريقية" وقتل منهم عددًا عظيمًا، وسميت هذه الحركة "بحركة التطهير".

ويذكر المؤرخ ابن عذارى المراكشى أن سبب هذه الحركة التطهيرية يرجع إلى أن المعز بن باديس كان واقعًا تحت تأثير أستاذ له سنى المذهب يدعى أبا الحسن بن أبى الرجال، وكانت إفريقية كلها والقيروان على مذهب الشيعة، وعلى خلاف السنة والجماعة، من وقت تمالك عبيد الله المهدى لها، فحرّض ابن أبى الرجال المعز بن باديس وأدّبه، ودلّه على مذهب مالك وعلى السنة والجماعة، والشيعة لا يعلمون ذلك ولا أهل القيروان، فخرج المعز فى بعض الأعياد إلى المصلى فى زينته وحشوده وهو غلام، فكبا به فرسه، فقال عند ذلك أبو بكر وعمر، فسمعه الشيعة التى كانت فى عسكره، فبادروا إليه ليقتلوه، فجاء عبيده ورجاله ومن كان يكتم السنة من أهل القيروان ووضع السيف فى الشيعة، فقتل منهم ما ينيف على الثلاثة آلاف فى ذلك الموضع المسمى "بركة الدم" والمعروف بهذا الاسم إلى الآن.

وفى ذلك يقول الشاعر أبو القاسم بن مروان:

وســــوف يُقـــتَّلون بكـــل أرض كمـــا قُـــتِلوا بـــأرض القـــيروان

وقال آخر فى هذا المعنى:

يـا مُعــز الدولــة عِـش فــى رفعــة وســـــرور واغتـــباط وجَـــدَل

أنــت أرضــيت النبــى المــصطفى وعتـــيقًا فـــى الملاعـــين الـــسِّفَل

وجعلـــت القـــتل فـــيهم سُـــنة بأقـــصى الأرض فـــى كـــل الـــدُوَل

ملوك بنى حماد

حماد بن بلكين بن زيرى	٣٨٩ هـ/ ١٠٠٧ م
القائد حماد	٤١٩ هـ/ ١٠٢٨ م
محمد بن القائد	٤٤٦ هـ/ ١٠٥٤ م
بلكين بن محسن	٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م
الناصر بن علناس بن حماد	٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢ م
المنصور بن الناصر	٤٨١ هـ/ ١٠٨٨ م
باديس بن المنصور	٤٩٨ هـ/ ١١٠٤ م
العزيز بن المنصور	٥٠٠ هـ/ ١١٠٦ م
يحيى بن العزيز	٥١٥ هـ/ ١١٢١ م

إلى فتح الموحدين عام ٥٤٧ هـ/ ١١٥٢م

هذا ويتميز عهد كل من الناصر وابنه المنصور بأنه أزهى عصور آل زيرى (بنى حماد)، فقد اتسع ملك الناصر، وتغلب على قبائل البربر، وأنشأ لنفسه مدينة سماها "الناصرية"، وهى التى عرفت من بعد باسم "بجاية"، وبنى بها قصره العجيب "اللؤلؤة"، واتخذها عاصمة له اعتبارًا من عام ٤٦١هـ، وقد كان لزحف بنى هلال وبنى سليم على ملك بنى باديس بالمهدية عام ٤٤٤ هـ سبب فى إثارة الاضطرابات

هناك، وفى المقابل قد قويت سلطة بنى حماد، وهؤلاء قدموا من جنوب مصر بإيعاز من الفاطميين.

أما ما يتميز به عصر المنصور، فإنه فى المجال الحضارى قد بذل عناية كبرى نحو المبانى، كما شيد المصانع المختلفة، وعنى بإنشاء الحدائق العامة، واتخذ القصور الفخمة، وبنى فى القلعة العاصمة قصر الملك، والمنار، والكواكب، وقصر تالشام، وقصر ميمون.

أما أهم الأحداث فى هذا العصر، فهى نزوح جماعات غفيرة من الأندلس إلى الجزائر، وهؤلاء ممن امتازوا بثقافاتهم، وبراعتهم فى الصناعة والزراعة، فنهضوا بالعلوم والفنون والآداب فى المغرب الأوسط، كما عملوا على ازدهار الثروة فى ربوع البلاد.

* * *

المرابطون والموحدون

لقد اتسع سلطان كل من المرابطين ثم الموحدين، والذين تمكنوا بقواتهم من انتزاع أجزاء من سلطان بنى حماد فى الجزائر، وبالرغم من حرص بنى حماد على ملكهم من المرابطين، إلا أنهم لم يستطيعوا مقاومة سلطان الموحدين، واضطروا لأن يفسحوا لهم الطريق، وهكذا امتد سلطان الموحدين - كما سبق أن قررنا - فشمل الشمال الإفريقى، حيث استولوا على دولتى بنى حماد وبنى زيرى، وزحفوا شرقًا حتى بلغوا مشارف الحدود المصرية.

* * *

دولة بنى زيـــان

(٦٣٣ ـ ٧٩٦ هـ/ ١٣٣٥ ـ ١٣٩٣م)

كان بنو زيان ولاة للجزائر من قبل الموحدين، فلما ضعف سلطان الموحدين وأعلن الحفصيون فى تونس استقلالهم عنهم، لم ير بنو زيان بُدًّا من استقلالهم هم الآخرون، واتخذوا تلمسان عاصمة لهم، وينتسب بنو زيان إلى قبيلة بنى عبد الواد، كما يجمعهم نسب مع بنى مرين، وقد اشتهر بنو زيان بغلبتهم على المغرب الأوسط، بزعامة بطلهم التاريخى المسمى يغمراس، فبفضله استطاع أن يرسخ أقدام دولته ويدعم استقلالها، فقد كان بنو حفص أسبق فى إعلان الاستقلال عن الموحدين، وكانوا يطمعون فى أن يكون بنو زيان وبنو مرين تابعين لهم، لكن بنى مرين سرعان ما قوى شأنهم بالمغرب الأقصى، بعد أن قضوا على الموحدين، فكانوا جديرين بأن يرثوا مملكة هؤلاء.

وعلى هذا فقد كان بنو زيان بين قوتين، قوة المرينيين وقوة الحفصيين، وكلا الطرفين يحلم بالسلطة على الشمال الإفريقى بأكمله، ونتيجة لذلك نرى بنى زيان وقد استغرقوا وقتًا وجهدًا بالغين لتثبيت سلطانهم، حتى اضطروا فى بعض الأحيان إلى الاشتباك مع المغرب الأقصى وتونس فى آن واحد دفاعًا عن مملكتهم الفتية.

أشهر ملوك بنى زيان

يغمراس بن زيان	٦٣٣ هـ/ ١٢٣٥ م
عثمان (الأول) بن يغمراس	٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م
محمد (الأول) بن عثمان	٧٠٣ هـ/ ١٣٠٣ م
موسى (الأول) بن عثمان	٧٠٧ هـ/ ١٣٠٧ م
عبد الرحمن الأول بن موسى	٧١٨ هـ/ ١٣١٨ م
أبو سعيد عثمان (الثانى)	٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م
أبو ثابت الزعيم	٧٥٣ هـ/ ١٣٥٢ م
أبو تاشفين عبد الرحمن (الثانى)	٧٨٨ هـ/ ١٣٧٦ م
أبو زيان محمد (الثانى)	٧٩٦ هـ/ ١٣٩٣ م

ويتحدث ابن خلدون عن مؤسس هذه الأسرة فيقول:

"كان يغمراس بن زيان من أشد بنى عبد الواد بأسًا، وأعظمهم فى النفوس مهابة وإجلالا، وأعرفهم بمصالح قبيلته، وأقواهم كاهلا على حمل الملك، واضطلاعًا بالتدبير والرياسة، شهدت له بذلك آثاره قبل الملك وبعده، وكان مرموقًا بعين التجلة.

مؤملاً للأمر عند المشيخة، وتعظمه من أمره الخاصة، وتفزع إليه فى ثوائبها العامة، فلما تولى هذا الأمر بعد أخيه أبى عزة سنة ٦٣٣هـ قام به أحسن قيام، واضطلع بأعبائه، وظهر على الخارجين على أخيه، وصيّرهم فى جملته وتحت سلطانه، وأحسن السيرة فى الرعية، واستمال عشيرته وقومه وأحلافهم بحسن السياسة والاصطناع، وكرم الجوار، واتخذ الآلة، ورتب الجنود والمسالح، واستلحق العساكر من الروم، وفرض العطاء، واتخذ الوزراء والكتاب، وبعث فى الأعمال، ولبس شارة الملك والسلطان، ومحا آثار الدولة المؤمنية، وعطل من الأمر والنهى دستها، ولم يترك من رسوم دولتهم وألقاب ملكهم إلا الدعاء على منابره للخليفة بمراكش".

"وكانت له مع ملوك الموحدين من آل عبد المؤمن ومديلتهم آل بنى حفص مواطن فى التحرش والمنازلة، وكذلك كان بينه وبين بنى مرين قبيل ملكهم بالمغرب وبعد ملكهم وقائع متعددة، كتب له الفوز فى أكثرها".

هذا، وينظر المؤرخون إلى عهد أبى حمو موسى على أنه من أنضر عهود بنى زيان، فقد أصبحت تلمسان فى عصره من أعظم العواصم، ومن أهم مراكز العلم والسياسة، حتى لقد نبغ جماعة من أشهر المفكرين فى العالم الإسلامى يومئذ بتلمسان، وفى مقدمة هؤلاء المؤرخ الأديب المقرى مؤلف "نفح الطيب"، والثعالبى مؤلف "الجواهر الحسان"، كما اشتهرت دولة بنى زيان ببناء المعاهد العلمية التى أجرت على أساتذتها وطلابها العطايا والمنح.

النظام الإدارى فى دولة بنى زيان

لقد قسمت الدولة إلى ثلاث شعب رئيسية: وهى السلطة العسكرية ويرأسها صاحب السيف، والسلطة الإدارية يتولاها صاحب القلم، والسلطة القضائية ويتولاها قاضى القضاة، ويمكن اعتبار كل من هؤلاء فى رتبة الوزير بمعناه فى عصرنا الحاضر، وإلى جانب هؤلاء كان هناك صاحب المال، وصاحب الأشغال، وكان يرأس كل هؤلاء من يسمى بمزوال بمعنى "رئيس الوزراء"، فهو يشرف على كل هؤلاء، وإليه يرجعون فى مهام الأمور.

وفى كل مدينة كان يوجد الحافظ (الوالى) وإلى جواره القاضى والمحتسب وصاحب الشرطة وغيرهم من موظفى الدولة.

الجزائر فى أواخر عهد الزيانيين

لقد مرت على الجزائر فترة فى نهاية عصر بنى زيان تعتبر من أشد الفترات الجزائرية ظلامًا، واستمرت تلك الفترة حوالى قرن من الزمان، وهو القرن الذى سبق احتلال العثمانيين لها.

كانت الأندلس فى أخريات أيامها، وكان الخلاف على أشده بين بنى مرين وحكام تلمسان من بقايا بنى زيان، وامتد طغيان الإسبان والبرتغاليين إلى السواحل الإفريقية الشمالية انتقامًا من أهلها، الذين طالما أمدوا المسلمين بالأندلس بالمساعدات الحربية والبشرية، كما أخذوا يتلقفون أهل الأندلس الفارين من طغيان محاكم التفتيش فى إسبانيا، فهكذا عاشت الجزائر فترة قاسية بين سنتى ١٣٩٣ و١٥١٨م، وامتد سلطان الفرنجة إلى الجزائر أحيانًا، فكان هذا فى مجمله إيذانًا بعهد جديد ينقذ الجزائر من معاناتها، وهذا ما تجلى فى مجىء هذا العهد.

يقول الأستاذ أحمد توفيق المدنى فى كتابه "هذه هى الجزائر" ص ٦٨:

"احتل الإسبان مرسى وهران والمرسى الكبير، وهددوا مدينة جزائر بنى مزغنة تهديدًا مباشرًا، واستولوا على أكبر الجزيرات الواقعة تجاهها، وجعلوا فيها حصنًا يضع البلدة تحت رحمته، ثم أخذوا يوالون غاراتهم البرية قاصدين تلمسان، ولم تكن دولة بنى زيان فى أواخر عهدها تستطيع أن تجمع الأمة لقتال هؤلاء المستعمرين،

الذين كانوا تحت قيادة راهب متهور، ربما لم يعرف التاريخ راهبًا أكثر منه تعصبًا وبعدا عن روح دين عيسى عليه السلام، فكانت الحملة الإسبانية حملة نهب ولصوصية، وانتقام من المسلمين، وانتهاك فظيع لحرمات المسلمين، وكانت أخبار غارات الإسبان على سواحل المغرب العربى حديث الناس أجمعين فى ذلك العهد العثمانى".

وحدِّث عن لصوصية البحر ولا حرج، فالإسبان والبرتغاليون قد أنشأوا مع غيرهم من رجال أوربا سفن القرصنة، وانهالوا على مهاجرى الأندلس التعساء، فما كان يصل منهم إلى أرض الجزائر إلا القليل الذى فقد كل متاع وكل مال.

وكاد المغرب العربى كله يسقط تحت تلك الضربات الفتاكة لولا أن تدخل القدر، وحدثت المعجزة.

أما هذه المعجزة فهى الأخوان عروج وخير الدين باربا روس، ومحاولاتهما المباشرة للدفاع عن الساحل، ثم المحاولة التى لجأ إليها خير الدين بالانضمام إلى قوة الأتراك العثمانيين، التى كانت تمثل آنذاك وحدة الإسلام والمسلمين أمام القوة المسيحية، وامتد بذلك سلطان العثمانيين للجزائر سنة ١٥١٨م، فأذن بذلك.

تلمســــان

تذكر المعاجم والمؤرخات أن كلمة "تلمسان" مركبة من "تلم" ومعناها: لها، و"سان" أى: لها شأن، ثم صرفت الشين بمرور الزمن إلى سين.

وذكر المقرى نقلًا عن الكاتب أبى زَريا يحيى بن خلدون من كتابه "بغية الرواد فى أخبار بنى عبد الواد، وأيام أبى حمو الشامخة الأطواد" ـ بعد كلام فى شأن البربر ـ ما صورته: ودار طكهم وسط بين الصحراء والتل، تسمى بلغة البربر "تلمس" وهى كلمة مركبة من "تلم" ومعناه تجمع "سن" ومعناه أثناء الصحراء والتل، فيما ذكره شيخنا العلامة أبو عبد الله الأيلى، رحمه الله وكان حافظًا بلسان القوم[1].

وتقع المدينة غرب الجزائر، وهى مركز للمحافظة التى تسمى باسمها ويبلغ عدد سكانها حوالى ٩٥٠٠٠ نسمة، وتشتهر بينابيعها وكرومها، وصناعتها المحلية، والتى أهمها السجاد والجلود، ومعامل النسيج.

وللمدينة شهرة علمية تاريخية، كما كانت سوقًا تجارية مهمة، ولا سيما فى عهد المرابطين، الذين أسسوا بها "المسجد الكبير" وقد اتخذها بنو عبد الواد عاصمة المغرب الأوسط، وقد أخذت شهرتها فى الاضمحلال منذ الاحتلال العثمانى، من

(١) المقرى فى "نفح الطيب" ج ٩ ص ٣٣١-٣٤٢ (تحقيق محيى الدين عبد الحميد) القاهرة ١٣٦٩هـ.

مشاهير علمائها أبو إسحاق الأنصارى (١٢١٢-١٢٩١هـ) وغيره من فقهاء العصر الإسلامى الوسيط.

هذا، وقد وصفها الوزير المؤرخ لسان الدين بن الخطيب السلمانى، فى كتابه: "معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار" وصفًا يليق بمكانة المدينة سياسيًّا وعلميًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا[1].

(١) انظر تحقيقنا لهذا الكتاب ص ١٨٣ (نشر وزارة الأوقاف المغربية ١٩٧٧م).

الفصل الرابع

المغرب الأدنى (تونس)

عندما استقل الأدارسة والرستميون بالجزء الغربى من الشمال الإفريقى بقيت "القيروان" عاصمة لما تبقى من الشمال الإفريقى، وعليه أضحت طرابلس وتونس تكوّنان إمارة واحدة فى معظم فترات التاريخ، وكان يطلق على هذه الإمارة "إفريقية"، وظلت القيروان عاصمة لها، فهكذا كان الحال فى عهد كل من الأغالبة والعبيديين وآل زيرى والموحدين وبنى حفص.

كان أمير تونس يُعَيِّن من طرفه واليًا على طرابلس، وقد بلغ الاهتمام بطرابلس إلى درجة أن ولاتها كانوا يختارون من خيرة الرجال، كما كانوا يختارون فى عهد الأغالبة من البيت الحاكم نفسه غالبًا، وهذا لا يمنع من القول بأن طرابلس حققت لنفسها فى بعض الفترات حكمًا مستقلًا، ولكنها كانت تعود فى النهاية للارتباط بتونس، إلا أن استقلالها نهائيًا بدأ منذ العهد العثمانى.

ولقد ضمت تونس كذلك منطقة فزان فى ليبيا فترة من الوقت، لكن هذه المنطقة لم تكن تعرف الاستقرار غالبًا، حيث إنها بلاد قبلية.

القيروان

على أثر انتصار القائد الإسلامى عقبة بن نافع فى إفريقية كان فى حاجة ماسة إلى اتخاذ مدينة يختطها، لتأمين جيوشه وأمواله ومتاعه من الأعداء، لا سيما وأنه تولى على إفريقية من قِبل معاوية بن أبى سفيان، وأسلم على يديه كثير من جموع البربر، وهكذا نراه يختار مدينة القيروان لهذا الغرض، وحيث رأى فى موقعها بعدًا عن ساحل البحر، وبذلك يأمن شر غارات أساطيل الروم.

وقد اختط عقبة بالقيروان دارًا للإمارة، وبنى بها المسجد الجامع الذى نسب إليه، وقام الناس فاختطوا لأنفسهم من حوله بالمدينة التى جمعت ألوانًا وأجناسًا، منهم القرشى، ومنهم من كان يرجع إلى مضر أو ربيعة أو قحطان، إلى جانب طوائف من أهل الفرس الخراسانيين، بالإضافة إلى بعض القبائل البربرية.

ويذكر المؤرخون أنه كان يستدير بالقيروان سور أقامه القائد العباسى محمد بن الأشعث الخزاعى عام ١٤٤هـ ولكنه تهدم فى عهد زيادة الله إبراهيم بن الأغلب سنة ٣٠٩هـ وثار عليه أهل القيروان تحت زعامة المنصور المعروف بالطنبدى، ثم أعيد تشييد هذا السور بأمر من المعز بن باديس بن منصور الصنهاجى عام ٤٤٤هـ.

هذا، ويعتبر جامع عقبة بن نافع أول معهد علمى ظهر فى إفريقية (تونس)،

والذى أقامه هو وأصحابه من الفاتحين خلال منتصف القرن الأول الهجرى، وحيث بدأت حلقات الدرس فيه قبيل نهاية ذلك القرن، وفى نفس تلك الفترة التاريخية أنشئ جامع الزيتونة فى تونس، ويرجع الفضل فى اختطاطه إلى الفاتح العربى حسان بن النعمان الغسانى حوالى عام ٨٠هـ ثم أعاد بناءه القائد عبد الله بن الحبحاب سنة ١٤٦هـ، ثم جدد فى عهد الأمير أبو إبراهيم أحمد بن محمد، وكذا فى عهد أخيه من بعده، الذى أشرف على إتمام البناء عام ٢٥٠هـ.

وفى عام ٢٦٤هـ تحول الأمير إبراهيم الأصغر إلى مدينة (رقادة) بضواحى القيروان، حيث اتخذها دارًا للإمارة، وأنشأ بها بيت الحكمة الذى اشتهر فى المجالات الثقافية فى عدة أقطار، فقد عمل الأمير إبراهيم الأصغر على استقطاب العلماء والأدباء من البلاد الإسلامية لهذه المنشأة، خاصة وأنه هو ذاته كام شغوفًا بالمعرفة، ولا سيما العلوم الرياضية والفلسفية، وفى سبيل الحصول على أمثال هؤلاء العلماء فقد كان يوفد سفارات أول كل عام إلى دار الخلافة، وكان الغرض الحقيقى من تلك السفارة هو استجلاب أندر المؤلفات وأنفسها، واستقطاب أولى العلم والأدب من الحواضر الإسلامية، خاصة مصر والعراق.

وهكذا استمر "بيت الحكمة" بمنزلة جامعة لنشر المعرفة والحضارة بين ربوع المغرب العربى الكبير، وبين أجزاء لا بأس بها من إفريقيا، وظل على هذا الحال إلى أن انقرضت دولة بنى الأغلب، وقامت على أعقابها الدولة العبيدية بزعامة عبد الله المهدى، إلا أن هذا الزعيم سرعان ما ألغى بيت الحكمة، بعد أن تخرج منه العديد من العلماء والمفكرين والأدباء، بالإضافة إلى طوائف من الأطباء والرياضيين والكيميائيين ذوى المكانة والشهرة، من خلال أربعين عامًا هى عمر بيت الحكمة.

وتجدر الإشارة إلى أنه فى الوقت الذى كانت فيه دولة الأغالبة توطد سلطانها فى شمال إفريقية، وتنهمك فى جلب المفكرين والعلماء والمؤلفات لجامعهم العظيم فى

القيروان، كان هناك بالمغرب الأقصى ميلاد لدولة جديدة هى دولة الأدارسة، التى ما فتئت منذ رسوخها تعمل على منافسة دولة الأغالبة سلطانًا وبسط نفوذ، ومن ثم استقطاب أهل القيروان وما جاورهم للنزوح إلى العاصمة الأدريسية الوليدة (فاس)، حيث أنشئت بهذه الأخيرة المؤسسة العلمية (جامع القرويين).

ولقد كان من حسنات بيت الحكمة أن انشقت عنه "المدرسة الطبية القيروانية"، تلك المؤسسة العلمية التى صمدت فى ميدانها قرابة ثلاثة قرون، وليصل تأثيرها العلمى إلى أوربا وخاصة إيطاليا، ويعزى هذا التأثير إلى قسيس نصرانى تونسى يدعى "قسطنطين الإفريقى"، حيث ولد فى قرطاج عام ٤٠٦هـ، وقام بدور فعال فى نقل العلوم الطبية العربية عن طريق إفريقية إلى إيطاليا، ومنها إلى أنحاء شتى من أوربا.

تلقى هذا القسيس كافة علومه ومعارفه فى القيروان، بعد أن أجاد اللغة العربية، وأخذ عن مشاهير أطباء تلك المدينة، ودرس معظم المؤلفات الطبية، وخاصة منها ما وضعه التونسيون، أمثال: أحمد بن الجزار القيروانى، وإسحاق بن عمران، وإسحاق بن السليمان، كما تعلم الرياضيات وتعمق فيها، ثم انتقل إلى صقلية حيث احتضنه ملك النورمان وأغدق عليه، وحيث نصبه على رأس دير "موتى كاسفى" المعروف، وفى هذا الدير تفرغ هذا القسيس لترجمة كافة العلوم التى درسها فى كل من إفريقية ومصر، ثم صارت تلك المعارف تدرس بعدئذ فى جامعة باليرمو، وعندما انتقلت إلى الجامعات الإيطالية الأخرى، ولا سيما فى نابولى وبادوفا وبولونيا، ومن إيطاليا انتشرت هذه العلوم فى ربوع أوربا، حيث عدت هذه الفترة بداية للنهضة الأوربية الحديثة، بفضل علوم العرب، كما رأينا.

وتجدر الإشارة فى نهاية الحديث عن القيروان، التى كانت عاصمة لإفريقيا[1] أنها

(١) كان العرب فى عصورهم الوسطى يستعملون إفريقية فيما يشتمل على المغرب الأدنى والأوسط، فيشمل طرابلس وتونس والجزائر.

اشتهرت بوفرة الفقهاء الأعلام المالكية، وأولهم أسد بن الفرات النيسابورى الأصل، القيروانى النشأة والدار، وقد أخذ عن مالك موطأه فى المدينة، ثم رحل إلى العراق، فأخذ عن أبى يوسف ومحمد صاحبى أبى حنيفة، أخذ عن أبى يوسف الأسئلة التى كان يثيرها الحنفية، ويضمون إليها الأحكام على مقتضى مذهبهم، فجردها أسد بن الفرات من أحكامها، وعرضها على ابن القاسم نفسه، وتلقى منه أحكامها على مذهب مالك، أو اجتهاد ابن القاسم نفسه، أو اجتهاد أشهب، ودوّن ذلك كله فى الكتاب المشهور المسمى بـ "المدونة"، فالمسائل المجردة مسائل الحنفية، والأحكام أحكام مالك وصاحبيه، وتشتمل على ستة وثلاثين ألف مسألة، وقد حمل أسد بن الفرات ذلك كله إلى القيروان ونشره بالمغرب، وتولى القضاء بها زمنًا، كما تولى قيادة الجيش الذى فتح صقلية لبنى الأغلب، وقد قتل وهو محاصر لسرقوسة سنة ٢١٣هـ[1].

ومن علماء القيروان أيضًا عبد السلام بن سعيد المعروف بـ "سحنون"، وهو من العرب الوافدين من شبه الجزيرة العربية، قدم مع أهله الذين نزلوا القيروان، وفيها تلقى علومه، ثم رحل إلى الشرق، وأخذ وقرأ على ابن القاسم وأشهب وابن وهب وغيرهم، ثم عاد إلى القيروان، حيث أعاد قراءة المدونة على ابن القاسم وصححها عليه، ونشرها بين أهل المغرب الذين أقبلوا عليها، كما درَّس لكثيرين تخرجوا على يديه، فكان لهم فضل نشر العلم فى ربوع البلاد.

ويروى ابن الحارث قائلًا: قدم سحنون إفريقية بمذهب مالك، واجتمع له مع ذلك فضل الدين والورع والعفاف والانقباض، فبارك الله فيه للمسلمين، ومالت إليه الوجوه وأحبته القلوب، وصار زمانه كأنه مبتدأ قد أمحى ما قبله، فكان أصحابه سرج القيروان، وابن غافق عاقلها، وابن عمر حافظها، وابن جِبِلّة زاهدها، وحمديس أصلبهم فى السنة وأعداهم للبدعة، وسعيد بن الحداد لسانها وفصيحها،

(١) أحمد أمين فى ظهر الإسلام، ج ١ ص ٢٩٨.

وابن مسكين أرواهم للكتب والحديث، وأشدهم وقارًا وتصاونًا، كل هذه الصفات مقصورة على وقتهم[1].

وقد توفى سحنون هذا عام ٢٤٠ هـ، عن ثمانين عامًا، وقد اشتهر ابنه بالتآليف الجمة فى ميدان الحديث والفقه خاصة، ومات عام ٢٥٦هـ، وقد عرفت القيروان بكثرة علمائها الأفذاذ، مثل من ذكرنا وغيرهم، بيد أنه لما تغلبت الدولة الفاطمية أخذت فى نشر فقهها الشيعى، واضطهدت فقهاء أهل السنة، وزادوا إمعانًا فى هذا الأمر، فقد عرضوا التشيع على كثيرين من هؤلاء، فلما رفضوا أذاقوهم ألوانًا من العذاب، وقد قتلوا ـ فى وقعة أبى يزيد بن مخلد بن كيداد ـ خمسة وثمانين من نخبة علماء القيروان.

(١) "الديباج" ص ١٦٢.

الوضع فى إفريقية بعد انتقال المعز لدين الله مصر

تولى المعز بن زيرى الصنهاجى واليًا على إفريقية من قِبَل المعز لدين الله الفاطمى، حيث تم استيلاء آل زيرى على ما تبقى من الشمال الإفريقى، بعد استقلال القبائل بالمغرب الأقصى عن الشمال الإفريقى، وقد تفرع آل زيرى إلى فرعين:

فرع بنى حماد فى الجزائر وينسب هذا الفرع إلى حماد بن بلكين بن زيرى، وفرع المنصور بن زيرى الذى ظل يحكم المنصورية عاصمة الفاطميين بالشمال الإفريقى.

وقد عمل الفرعان على الاستقلال شيئًا فشيئًا عن الفاطميين، ومن ذلك أنهم اتجهوا إلى نقض أيديهم من التشيع، والاتجاه نحو العباسيين فى بغداد، ونظرًا لكون "إفريقية" متاخمة لمصر، ولأن هذه المناطق ظلت فترة طويلة وهى مقر للفاطميين، كما أن بها عاصمتين لهم، وهما: المهدية والمنصورية، فقد عز على الفاطميين أن يروا آل زيرى يتنكرون لهم مع كونهم حكامًا لهذه المناطق من قبلهم، وكان أن اضطروا إلى الدخول مع الزيريين فى معارك دفاعًا عن سلطانهم بإفريقية، ورغم أنهم قد انتصروا فى بعض تلك المعارك إلا أنه ما كادت تحل سنة ٤٣٥هـ حتى عمت إفريقية ثورة ضد المذهب الشيعى، وأخذ السكان يتحولون إلى المذهب المالكى، وقد اشتد هذا التحول عندما ألغيت الخطبة للفاطميين، وأقيمت الخطبة لبنى العباس، وتبع تونس فى هذا ولاية برقة، فكان هذا نذيرًا بزوال النفوذ الفاطمى فى الشمال الإفريقى وتهديدًا لهم بمصر، فكتب الخليفة المستنصر الفاطمى إلى المعز بن باديس مهددًا

بقوله فى رسالة إليه: "... هلا اقتفيت آثار آبائك فى الطاعة والولاء...؟" فكان جواب المعز عليه جافًا، وهنا اشتد غيظ الخليفة الفاطمى، واستشار وزيره فى الأمر، فأشار عليه بأن يتألف القبائل العربية من بنى هلال وبنى سليم، الذين كانوا يقطنون بصفة غير مستقرة فى جنوب مصر، فوافق على ذلك، وبعث إلى هذه القبائل يخبرهم بأنه يمنحهم حكم إفريقية، وأنه قلدهم إياها، وعليهم أن يجهزوا أنفسهم للرحيل إليها، وبذل فى سبيل ذلك لهم العطاء، وأعطى عامتهم بعيرًا ودينارًا لكل منهم، فطمعوا فى هذا، واتجهوا نحو برقة عام ٤٤٤هـ، وكان عددهم يربو على الأربعمائة ألف، فاقتحموا البلاد، واستباحوا المدن والقرى.

وهكذا كان ما قام به الخليفة الفاطمى ضد المعز بن باديس انتقامًا فظيعًا، فقد شن بنو هلال وبنو سليم حربًا شعواء لا رحمة فيها فى هذه المناطق، وأوقعوا هزائم بالغة بالمعز، كما أحدثوا انقلابًا شاملًا فى بلاد إفريقية فى الاقتصاد والسياسة، وغلبت عليها البداوة، وعمت الفوضى، وشلت سلطة الحكومة المركزية، وسقطت مدن كثيرة فى أيدى هؤلاء العرب، كما استقلت بعض المدن بأمرها، فتولى الحكم بها أمراء أعلنوا العصيان لبنى زيرى.

وكان من جراء تلك الأحداث الجسام أن عاد بنو زيرى يعترفون بسلطان الفاطميين فى القاهرة، ومن هؤلاء يحيى بن تميم ثم ابنه على، ومع هذا فإن سلطان الفاطميين على الشمال الإفريقى كان بمنزلة الظل فى تلك الآونة، حتى إن المؤرخين يؤكدون أن آل زيرى كانوا هم الحكام الحقيقيين للشمال الإفريقى فى هذه الفترة التى استقر فيها الفاطميون بمصر.

آل زيـــــرى

(٣٦٢ـ ٥٤٣ هـ/ ٩٧٢ ـ ١١٤٨م)

عرفنا أن المعز لدين الله الفاطمى اختار بلكين بن زيرى واليًا على إفريقية، واستثنى من ولايته على تلك المناطق طرابلس وبرقة وسرت، حيث جعلها تابعة لمصر، وولى عليها عبد الله بن يخلف الكتامى الذى اتخذ من طرابلس مقرًّا لولايته، وفى عام ٣٦٧هـ بعث بلكين بهدايا جمة وثمينة إلى العزيز بن المعز، وطلب إليه أن يضم إلى إمارته المقاطعات الثلاث التى يحكمها الكتامى، فأجابه العزيز لطلبه، وعزل حاكمها، ومن ذلك الوقت أخذ بلكين يولى عليها من طرفه من يشاء.

أمراء آل زيرى

ـ يوسف بن بلكين بن زيرى	٣٦٢هـ/ ٩٧٢م
ـ منصور بن يوسف	٣٧٣هـ/ ٩٨٣م
ـ باديس بن منصور	٣٨٦هـ/ ٩٩٦م
ـ المعز بن باديس	٤٠٨هـ/ ١٠١٧م
ـ تميم بن المعز	٤٥٣هـ/ ١٠٦١م
ـ يحيى بن تميم	٥٠١هـ/ ١١٠٧م
ـ على بن يحيى	٥٠٩هـ/ ١١١٥م
ـ حسن بن على	إلى ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م

وكان أن تسرب الانحلال إلى الدولة الزيرية، لشدة الخلافات بينها وبين الفاطميين، واشتباكاتها مع بنى هلال وبنى سليم، وذلك بالإضافة إلى تهديد النورمانديين للمسلمين بهذه البلاد فقد استولى هؤلاء على بعض مدن الشمال الإفريقى، مثل طرابلس وتونس والمهدية، كما أن قوة الموحدين يومئذ قد بدأت تجتاح شمال إفريقية، كل هذا آذن بنهاية الدولة الزيرية.

الموحدون

سبق أن تحدثنا عن دولة الموحدين، وذكرنا أنهم نشروا نشاطهم فى الشمال الإفريقى، حتى وصلوا إلى الحدود المصرية شرقًا، كما مدّوا هذا النشاط غربًا حتى المحيط الأطلسى، فكان ضمن مناطق نفوذهم إفريقية التى ظهر بها ثائر ضدهم يدعى يحيى بن غانية" المرابطى" .

وقد تمكن هذا الثائر من أن يحقق انتصارات ضد الموحدين، إذ استولى على كل من قسطنطينة وتونس وطرابلس حوالى سنة ١١٩٠م فى بداية أمره، ولكن سرعان ما لحقته الهزائم بعدئذ، إذ انتهى أمره عام ١٢٠٧م، الأمر الذى اضطر معه الموحدون إلى إسناد حكم إفريقية وما حولها إلى أحد أبطالهم، وهو عبد الواحد بن أبى حفص رأس أسرة الحفصيين، وذلك لحماية تلك المناطق من حركات الثوار.

الحفصيون

(٦٢٥ـ ٩٤١هـ/ ١٢٢٨ ـ ١٥٣٤م)

عرف عن بنى حفص أنهم من خيرة رجال الموحدين فى الشمال الإفريقى، فكان منهم القواد والوزراء، ومن أشهر هذه الأسرة عبد الواحد بن أبى حفص الذى تقلد إمارة تونس من طرف الموحدين، ولما ضعف أمر الدولة استقل الحفصيون بتونس، كما حاولوا السيطرة على الشمال الإفريقى بأكمله، ليرثوا ملك الموحدين، ولكن بنى زيان حكام الجزائر حالوا بينهم وبين أحلامهم هذه، مما أدى إلى حدوث صدام بين هاتين الدولتين، ومن جهة أخرى نرى أن الدولة المرينية قد استولت على السلطة فى أعقاب الموحدين بالمغرب، ووقفت فى وجه أطماع الحفصيين، بل مدت الدولة المرينية سلطانها شرقًا حتى تونس عام ٧٤٧هـ (١٣٤٦م)، فكان بنو حفص يحكمون تونس باسم بنى مرين، ويعترفون لهم فى الوقت نفسه بالسيادة.

هذا، وتجدر الإشارة إلى أن الخلافات قد حلت بأسرة الحفصيين الحاكمة، كما خضع البعض منهم لسلطان المسيحيين من الإسبان على الخصوص.

ملوك بنى حفص

ـ أبو زكريا يحيى الأول	٦٢٨هـ/ ١٢٢٨م
ـ أبو عبد الله محمد(المستنصر الأول)	٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م
ـ أبو زكريا يحيى (الثانى)	٦٧٥هـ/ ١٢٧٧م
ـ أبو إسحاق إبراهيم	٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م
ـ أبو حفص عمر(المستنصر الثانى)	٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م
ـ أبو عبد الله محمد (الثانى)	٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م
ـ أبو بكر (الأول) شديد	٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م
ـ أبو البقاء خالد (الأول)	٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م
ـ أبو يحيى زكريا	٧١١هـ/ ١٣١١م
ـ أبو ضربة محمد(الثالث)	٧١٧هـ/ ١٣١٧م
ـ أبو يحيى أبو بكر (الثانى)	٧١٨هـ/ ١٣١٨م
ـ أبو حفص عمر (الثانى)	٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م
ـ أبو عباس أحمد (الأول)	٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م
ـ أبو إسحاق إبراهيم (الثانى)	٧٨١هـ/ ١٣٥٠م

ـ أبو البقاء خالد (الثانى)	٧٩٠هـ/ ١٣٦٨م
ـ أبو العباس أحمد (الثانى)	٧٩٢هـ/ ١٣٧٠م
ـ أبو فارس عبد العزيز	٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م
ـ محمد (الرابع)	٨٣٧هـ/ ١٤٠٨م
ـ أبو عمر عثمان	٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م
ـ أبو زكريا يحيى (الثالث)	٨٩٣هـ/ ١٤٩٣م
ـ أبو عبد الله محمد (الخامس) الحسن	٩٣٢هـ/ ١٤٩٥م
إلى	٩٤١هـ/ ١٥٣٤م

سقوط الحفصيين

ولقد تلا ذلك فترات قلاقل واضطرابات، وصاحبها ضعف حكم الحفصيين، وعدم استقرار الأوضاع فى المنطقة ، لوقوعها بين أطماع الإسبان ورغبة الأتراك فى السيطرة عليها، وقد استمر الوضع كذلك حتى سنة ١٥٦٨م، ففى غضون هذا العام تغلب الأتراك، وكانوا قد بدءوا فى السيطرة على تلك المناطق منذ عام ١٥٣٤م، وإن كان الوالى الحسن الحفصى قد لجأ إلى الإسبان، ليعينوه على استرداد السلطة من الأتراك، وفعلا أعادوا إليه تونس فى العام التالى فى ظل سيطرتهم الفعلية، بحيث كان الحسن يدفع جزية مالية سنوية للإسبان، بالإضافة إلى تنازله عن موانى مدينتى عنابة وبنزرت، وهكذا بقيت تونس تجتاحها الفتن والاضطرابات قرابة ثلاثين عامًا، حتى تمكن الأتراك من السيطرة التامة عليها عام ١٥٦٨م.

الأغالبة

استقلت دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى، كما استقل بنو رستم بالمغرب الأوسط، فخاف العباسيون على سلطانهم بالمغرب الأدنى، خاصة وأن حكمهم بإفريقية بدأ يدب إليه الضعف فى عهد الوالى العباسى القدير بن يزيد بن حاتم المهلبى سنة ١٧٠هـ ، وفى خضم هذه القلاقل ظهر إبراهيم بن الأغلب الذى استطاع بشخصيته أن يعيد للعباسيين سلطانهم على هذه البلاد، بعد أن كتب إلى الخليفة الرشيد برغبة السكان فى أن يتولى حكم المنطقة من قِبَله، فأجابه إلى ذلك، فقام إبراهيم بالأمر خير قيام، وأنشأ مدينة العباسية قرب القيروان وانتقل إليها، فازدهرت المدينة، وعمرت بسكانها، وسادها جو علمى واقتصادى زاهر.

هذا، وقد اتفق إبراهيم مع الرشيد على أن تكون له الولاية على إفريقية طيلة حياته ، ثم لبنيه من بعده بالوراثة، على أن يتولى الخليفة فى بغداد اعتماد الولاة واحدًا بعد الآخر، وبهذا بدأت أسرة الأغالبة، تلك التى يرجع إليها الفضل فى استقرار الأمن فى إفريقية لأول مرة فى التاريخ.

١ـ إبراهيم بن الأغلب

أقنعت أحداث إفريقية المتوالية من المعارك الكثيرة التى خاضها العرب ضد البرابرة، وحركات التمرد التى قامت بها الدويلات فى الشمال الإفريقى... بأن

الانفصال عن الإمبراطورية العباسية أصبح حقيقة لا مناص منها، وقد دفع هذا الخليفة العباسى الرشيد إلى قبول ما عرضه عليه إبراهيم بن الأغلب بالتسليم باستقلال إفريقية استقلالًا جزئيًا عن الخلافة العباسية، والاكتفاء بالتبعية الاسمية للخلافة، وذلك نظير مبلغ من المال يدفعه إلى الخلافة، وكان الرشيد بفعله هذا يقر استقلال إبراهيم بن الأغلب الفعلى، مع التبعية الاسمية فقط للخلافة العباسية.

وقد كان إبراهيم هذا من أفضل ولاة المغرب، فقد جمع بين العلم والتفقه فى الدين، واتخذ من مدينة القيروان عاصمة له، وكان يسعى دائمًا إلى محاولة الاستقلال عن الخلافة العباسية، وذلك بتكوين قوة بحرية هائلة، لكن ابن الأغلب واجه مشكلات كثيرة وثورات عديدة، كان من أهمها ثورة حمديس، وهو من طائفة العرب، حيث أخذ فى نزع شعار السواد المعروف، وهو شعار بنى العباس، فبعث إليه إبراهيم قائده عمران بن مجالد فى جيش كثيف لقمع هذه الثورة، حيث تمكن من التغلب على حمديس، ومع أن إبراهيم كان يحاول استقلاله نهائيًا إلا أنه كان مخلصًا للخلافة العباسية، حيث كان يترصد أعداءها بالمغرب.

كذلك نجد فى عهده ثورة أهل طرابلس على ولاتهم من قبل ابن الأغلب فى سنة ١٨٩هـ، وقد قاتلهم عامله سفيان بن المضاء، حيث كانوا يكون منه فبعث ابن الأغلب جيشًا هزمهم، ودخل طرابلس، وقضى على هذه الثورة تمامًا.

ولم تقتصر ولاية ابن الأغلب على هذا، بل نجد أن قائده عمران بن مجالد قد تمرد عليه سنة ١٩٥هـ وافترق عنه، وكان معه أيضًا خريش بن التونسى، حيث اتخذا لهما أنصارا فى القيروان، مما اضطر ابن الأغلب إلى النزول بين القيروان والعباسية، وتمكن من التغلب على هذه الثورة التى قام بها كل من ابن مجالد وابن التونسى.

كذلك عندما ولى إبراهيم ابنه على طرابلس سنة ١٩٦هـ ثار عليه الجند وحاصروه فى داره، وصالحوه على أن يخرج من بلدهم، وبالفعل فقد خرج منها ليجمع حوله أنصارا بالأموال والعطايا، وزحف بهم على طرابلس، وتغلب على جندها.

هذا، ويعتبر إبراهيم بن الأغلب أول من اتخذ العبيد لحمل سلاحه، واستغنى عن استخدام الرعية فى أى شأن له.

٢ ـ أبو العباس عبد الله بن إبراهيم

وقد كان مشغولا وقت وفاة والده سنة ١٩٦هـ بإخماد الثورة فى طرابلس، فقام أخوه زيادة الله، وتلقى له البيعة، وعاد عبد الله إلى القيروان سنة ١٩٧هـ، واستقبله أخوه استقبالًا يليق به، وسلم له الإمارة ولكن بدلا من أن يعترف عبد الله لأخيه زيادة الله بالفضل فقد أخذ يتحامل عليه، ويأمر بسبه، إلا أن زيادة الله ظل يبدى له التبجيل والتعظيم، وكان أبو العباس جائرًا متعسفًا ظلومًا مع رعيته، حيث ضاق به الناس، مما دفع جماعة من الصالحين على رأسهم حفص بن حميد إلى نصحه بالعدل والإنصاف، وقدموا إليه الموعظة، ولكنه استخف بهم وأعرض عن نصائحهم، فخرجوا من قصره وقد ساءهم ذلك الاستخفاف بهم، وعندما وصلوا إلى وادى القصارين نزلوا هناك، وصلوا فى كُدْيَة ركعتين، ودعوا الله أن يكف عن المسلمين جور أبى العباس، ولم يمض على دعائهم خمسة أيام حتى توفى بسبب قرحة أصابته تحت أذنه سنة ٢١١هـ، وبذلك تنفست الرعية الصعداء.

٣ ـ زيادة الله

ويأتى بعده زيادة الله بن إبراهيم، وقد كان من أعظم أمراء بنى الأغلب على الإطلاق، لذلك نجد البلاد التونسية تنعم فى عهده بمثل ما نعمت به فى عهد سلفه من رخاء فى المعيشة، وقد ترك زيادة الله آثارًا كبيرة بالقيروان والعباسية وتونس وسوسة، وقد جمع عهده بين الفنون والعمارة والأدب، واشتهر هو بذلك، إلى جانب الكفاية الحربية، كما تمكن من قمع جميع الثورات بمجرد اعتلائه الإمارة بعد أخيه، ووصله التقليد من قبل الخليفة المأمون، وظل مخلصًا للمأمون حينما اعتلى عرش الخلافة ببغداد.

أما أهم الأحداث الداخلية فى عهده فهى ثورة زياد بن سهل، وثورة عمر بن مغاوية، وثورة منصور الطنبذى بتونس، وهى أخطر الثورات التى اشتعلت نيرانها فى عصره، وقد تمكن من إخماد كل هذه الثورات، مع أنها كادت تطيح بملك الأغالبة، لخطورتها واشتدادها.

كذلك عنى زيادة الله بالأسطول الإسلامى، وقام بغزو عدد من الجزر القريبة، بيد أن أهم الغزوات البحرية كان غزو جزيرة صقلية، حيث كان المسلمون دائمًا يحاولون الاستيلاء عليها، كما كان الروم يواصلون زحفهم على تلك الجزر لمحاولة السيطرة عليها، لهذا يمكن أن نرجع رغبة فتح المسلمين لصقلية للأسباب الآتية:

١ - اعتبار غزو صقلية عام ٢١٢هـ بمنزلة القضاء على غارات الروم المتكررة.

٢- كانت صقلية بالنسبة للمسلمين بلادًا غنية، حيث إنها تشتمل على أراض جديدة يمكن استغلالها إذا تم للمسلمين فتحها.

٣- كذلك نجد أن العامل الدينى ـ وهو الجهاد فى سبيل الله ـ كان له أثره فى إتمام هذا النصر ـ فقد كان أهل إفريقية قد تفقهوا فى الدين الإسلامى، وكان الخروج لمدافعة الروم عن صقلية أمر يتمناه العابدون والصالحون، وقد وافق زيادة الله على أن يكون القاضى أسد بن الفرات قائدًا للحملة، وحيث خرج معه أشراف العرب والجند والبربر والأندلسيون.

٤- أراد زيادة الله أن يبدو أمام الناس بمظهر المجاهدين، فيكسب قلوب رعيته، ويوطد مكانته فى نفوسهم.

٥ - أراد أن يتخلص من بعض جنوده عن طريق إشراكهم فى هذه الغزوة، فقد كانوا يقومون أحيانًا بالثورات ضده.

أخيرًا، يعتبر زيادة الله من أحسن خلفاء دولة الأغالبة على الإطلاق، وذلك لما قام به من أعمال عمرانية وحربية، مما أكسبه مكانة تاريخية ممتازة فى إفريقية.

٤ ـ أبو عقال الأغلب

وقد خلف أخاه عندما توفى، وكان يلقب بخزر، وقد ساد الهدوء أيامه ولم يعكر صفو هذا الهدوء إلا انتفاض خوارج زواغة ولواتة ومكناسة سنة ٢٣٤هـ فى إقليم قسطنطينة، وحيث قتل عامله هناك، فسير لهم جيشًا بقيادة عيسى بن ربعان، كذلك نجد أبا عقال قد اهتم بأمر صقلية، ونجح المسلمون فى افتتاح عدد من حصونها، كما اشتبك مع البيزنطيين فى موقعة بحرية انتهت بانتصار المسلمين.

٥ ـ أبو العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم (٢٢٦ ـ ٢٤٢هـ)

وقد ساد الأمن وعم السلام بلاد إفريقية فى أول ولايته، وظل الهدوء سائدًا، واستطاع خلال تلك الفترة بسط نفوذه فى المغرب الأدنى، فأسس مدينة بالقرب من تاهرت سماها "العباسية"، وقد قامت فى عهده عدة ثورات كان من بينها ثورة أخيه أحمد، ولكنه تمكن من التغلب عليه ونفاه إلى مصر.

كذلك قام سالم بن غلبون عامله على الزاب بالثورة عليه؛ حيث إن الأمير كان قد عزله، فأقبل سالم بن غلبون بجيش من أنصاره حتى وصل قلعة يلبسير، فأخرج إليه ابن الأغلب قائده خفاجه بن سفيان، وتمكن هذا من التغلب عليه، كذلك ثار عليه عمرو بن سليم التجيبى المعروف بالقويبع فى تونس، واستمرت ثورته فترة من الزمن، وفشل قائده خفاجة فى القضاء عليه، فبعث إليه بجيش آخر بقيادة محمد بن موسى المعروف بعريان، فانهزم محمد بن موسى؛ لأن عددًا كبيرًا من عسكر ابن الأغلب انضم إلى جيش القويبع، فسير إليه أبو العباس جيشًا للمرة الثالثة بقيادة خفاجة، الذى تمكن فى هذه المرة من هزيمته.

٦ ـ أبو إبراهيم أحمد بن محمد (٢٤٢ ـ ٢٤٩هـ)

وكان صغير السن، حسن السيرة، كريم الفعال، رفيقًا برعيته، متجنبًا الظلم، مولعًا بالبناء، فقد أنفق الأموال الكثيرة فى بنيان المساجد والجسور والقناطر، وزاد فى بناء الجامع الكبير.

وفى عهده ثار خوارج البربر من الأباضية فى طرابلس سنة ٢٤٥هـ، وهزموا عاملها أخاه عبد الله بن محمد، فسير لهم أخاه زيادة الله، فانهزم الأباضية، وقتل عددًا كبيرًا منهم، وتوفى أبو إبراهيم سنة ٢٤٩هـ.

٧ ــ محمد زيادة الله بن محمد (٢٤٩ ــ ٢٥٠هـ)

خلف أخاه، ولم يطل عهده، إذ توفى بعد أخيه بعام واحد، وهو الذى أتم عمل أخيه فى استكمال جامع الزيتونة بتونس.

٨ ــ أبو الغرانيق محمد بن أحمد (٢٥٠ ــ ٢٦١ هـ)

وقد لقب بهذا اللقب لحبه الشديد لصيد الغرانيق، حتى إنه بنى قصرًا يخرج إليه لصيدها، وأنفق عليه حوالى ٣٠ ألف مثقال من الذهب، وفى عهده أقام محمد بن حمدون المسجد الشريف المنسوب إليه بالقيروان، ويعرف بمسجد الأبواب الثلاثة.

٩ ــ إبراهيم بن أحمد (٢٦١ ــ ٢٨٩ هـ)

ويعتبر من أعظم أمراء بنى الأغلب فهو الذى قام بتأسيس مدينة رقادة، وبنى بها جامعًا، وأنشأ قصرًا أسماه الفتح، كما أقام الحصون والمحارس بالسواحل، حتى إن النار كانت توقد فى ساحل سبتة نذيرًا للعدو.

كذلك قام ببناء سور سوسة، وظهرت فى عهده فتنة العباس بن طولون، الذى انتهز فرصة غياب والده بالشام، ولكنه أصبح سيىء الطبع بمرور الأيام، جائرًا ظالمًا سافكًا للدماء، ثم أصيب فى آخر عهده بجنون القتل، حتى إنه قتل أبناءه وبناته، وقتل ثمانية إخوة له، وأتى بأمور لا تصدر إلا من متوحش، ويقال إنه فقد منديلًا صغيرًا، فقتل بسببه ثلاثمائة خادم، وكان أثيمًا جائرًا لما صدر عنه من شرور.

١٠ ــ زيادة الله بن عبد الله (٢٩٠ ــ ٢٩٦ هـ)

وهو آخر ملوك بنى الأغلب، لما تولى قبض على أعمامه، وأرسلهم إلى إحدى الجزر، وأمر بقتلهم، وعكف على اللهو والملذات، وظهر التقدم الشيعى فى عهده،

وكانت نهايته عندما طارده الشيعة فى طرابلس، فأقام بها ١٧ يومًا، ثم سار بعد ذلك إلى مصر، وبذلك انقرضت دولة بنى الأغلب.

سكان إفريقية فى عصر الأغالبة

كان يسكن إفريقية أيام الأغالبة أخلاط بشرية مختلفة فى الجنس واللغة، ومن هذه الأجناس يمكن أن نميز خمسة منها، وهى:

١ ـ العرب

وكان بعضهم من أعقاب الفتح الإسلامى، الذين استوطنوا أراضى إفريقية، وأصبحوا من أهل البلاد.

٢ ـ العجم الفرس

وهم الذين قدموا من خراسان وفارس مع ولاة بنى العباس، وكانوا يؤلفون قسمًا مهمًّا من الجند، حيث يعيشون فى القلاع البيزنطية أو القلاع القديمة، وقد ساهموا بنصيب وافر فى الجهاد بصقلية، حيث كانوا تحت قيادة أسد بن الفرات.

٣ ـ البربر

وقد حاولوا إقامة جمهورية لهم، حيث قاموا بعدة ثورات، وذلك بهدف الحصول على دولة مستقلة، ولكنهم لم يوفقوا فى مطلبهم هذا، وقضى على حركتهم.

الروم والأفارقة

وهم بقايا الروم، حيث كانوا يخدمون بيزنطة قبل الفتح العربى، ولم يجلوا عن قرطاجنة بعد سقوطها فى أيدى المسلمين، وقد تمكنوا من الاحتفاظ بلغتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وكان هؤلاء الروم والأفارقة يشتغلون بزراعة الزيتون، وقد ولاهم بعض أمراء الأغالبة مناصب مهمة فى الدولة بشرط دخولهم فى الإسلام.

الفن والعمارة فى عهد الأغالبة

اهتم الأغالبة بالعمارة فى تونس اهتمامًا كبيرًا، وأهم آثارهم مسجد القيروان، الذى اختطه القائد عقبة بن نافع عام ٥٠ هـ وقد زاد فيه الأغالبة زيادة عظيمة، وكذلك جامع الزيتونة، وهو الذى نهض بنفس المهمة العلمية التى بدأ بها الأزهر فى مصر، فهو بهذا يعتبر جامعة علمية قديمة، حفظت التراث الإسلامى، وما زال حتى الآن يؤدى رسالته السامية، وقد أسسه ابن الحبحاب عام ١١٤ هـ ولكن عظمته ترجع إلى عصر الأغالبية.

كذلك يعزى للأغالبة إنشاء مسجد سوسة، ورباطها، وسورها العظيم، كما تمكن الأغالبة من تأسيس العباسية.

أما عن الثقافة فى عهد الأغالبة فقد ظهرت بشكل بارز؛ حيث الجامعة العلمية بالقيروان وغيرها من المدارس الإقليمية، وفى عهدهم بدأ المغرب يأخذ طابعًا دينيًّا واضحًا وهو مذهب الإمام مالك، حيث أصبح هذا المذهب للمغاربة كعقيدة وطنية، فقد ظل يدفع الحياة فى المغرب ويطبعها بطابع خاص، وما زال موجودًا فى البلاد حتى اليوم.

الازدهار الاقتصادى فى عصر الأغالبة

لم تعرف بلاد إفريقية ـ منذ العصر الرومانى ـ ازدهارًا كما عرفته أيام الأغالبة، وقد أصيب اقتصادها فى النصف الثانى من عهدهم باضطراب شديد، بسبب تعاقب الغزاة عليها، وقيام البربر بالثورات والفتن.

أما من ناحية الثروة فقد اشتهرت "مجانة" بمعادنها الكثيرة، وعلى الأخص الكحل والفضة والحديد والزنك والرصاص، وكان من أهم الصناعات فى عهد الأغالبة صناعة الآلات الحديدية اللازمة لصناعة السفن، والسيوف والسروج، ولجم الخيل، وصناعة التحف من الذهب والفضة، كذلك اشتهر الأغالبة بصناعة

السجاد، وكذلك ازدهرت الحياة التجارية أيام الأغالبة فى القيروان ازدهارًا عظيمًا، وكثرت الأموال بسبب التجارة ورواجها.

أما سك العملة فيعزى ضربها إلى الفتيان والعبيد، وكان إبراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة أول من اتخذ من العبيد حراسًا له، واستكثر منهم وجعلهم تحت خدمته فى مدينة القصر القديم، وقد لعب الفتيان والعبيد دورًا مهمًّا فى دولة الأغالبة، وسجلت بعض أسمائهم على العملات، حيث كانوا يقومون بالإشراف على دار السكة، فقد كانوا موضع ثقة الأمراء فى هذه الوظائف الخطيرة، كذلك سجلت أسماؤهم فى النقوش التاريخية التى تمت على أيديهم، مثل اسم سرور خادم الأمير زيادة الله بن إبراهيم.

ملوك الأغالبـــة

إبراهيم (الأول) بن الأغلب	١٨٤هـ/ ٨٠٠م
عبد الله (الأول) بن إبراهيم	١٩٦هـ/ ٨١١م
زيادة الله (الأول) بن إبراهيم	٢٠١هـ/ ٨١٦م
الأغلب السعدى بن إبراهيم	٢٢٣هـ/ ٨٣٧م
محمد (الأول) بن الأغلب السعدى	٢٢٦هـ/ ٨٤٠م
أحمد بن محمد الأول	٢٤٢هـ/ ٨٥٦م
زيادة الله (الثانى) بن (محمد الأول)	٢٤٩هـ/ ٨٦٢م
محمد (الثانى) بن أحمد	٢٥٠هـ/ ٨٦٤م
إبراهيم (الثانى) بن أحمد	٢٦١هـ/ ٨٧٤م
عبد الله (الثانى) بن إبراهيم (الثانى)	٢٨٩هـ/ ٩٠٢م
زيادة الله (الثالث) بن عبد الله (الثانى)	٢٩٠هـ/ ٩٠٣م
إلى	٢٩٦هـ/ ٩٠٩م

جهود الأغالبة فى الداخل والخارج

لقد شمل الإسلام فى عهدهم كافة مناطق إفريقية، وانتهى أمر الوثنية والنصرانية إلى الأبد، كما عم انتشار اللغة العربية فى البلاد مكان اللاتينية التى كانت سائدة قبل عهد الأغالبة.

كذلك استطاع هؤلاء الحكام أن ينشروا السكينة والأمن فى ربوع البلاد، بالإضافة إلى أنه تم فى عهدهم امتزاج واسع بين العرب الفاتحين والسكان الأصليين بانتشار الثقافة العربية ومصاهرة السكان بعضهم لبعض، كما أن الأغالبة اجتهدوا فى نشر فنون العمارة العربية التى كانت سائدة فى كل من دمشق وبغداد آنئذ ولا تزال آثار تلك العمارة ماثلة حتى الآن فى بعض المدن كتونس والقيروان وطرابلس، كما أولى الأغالبة اهتمامًا بالمرافق العامة كالطرق والمواصلات والبريد، وازدهرت على عهدهم الحركة العلمية والفنية والأدبية.

ولقد انتشر صيت الأغالبة بعد أن أصبحوا يسيطرون على تلك المناطق الإفريقية والبحر المتوسط لتلك الشواطئ، وذلك من واقع شهادة المؤرخ الأوربى "ستانلى لين بول"، حيث يقول: "إن الأغالبة لم ينالوا فقط سلطانًا وطيدًا فى البر، بل شمل سلطانهم البحر الأبيض المتوسط أيضًا، فكانوا سادته والمسيطرين على الملاحة فيه، وكانت لهم بحرية قوية ألقت الرعب فى سواحل فرنسا وإيطاليا وكورسيكا، واحتلت صقلية ومالطة وسردينيا، وبعض المدن الساحلية بفرنسا وإيطاليا، وهددت ضواحى روما".

فتح صقلية

كانت صقلية فى مطلع القرن التاسع الميلادى خاضعة للبيزنطيين، ولكن كانت حينئذ يسودها جو من الفوضى، حيث غادرها أحد القادة البيزنطيين الذى قصد حاكم إفريقية يومئذ (زيادة الله بن إبراهيم)، وزين له أن يقوم بفتح هذه الجزيرة، وكانت أساطيل الرومان قد أغارت من صقلية على الساحل الإفريقى الشمالى، وخربت بيوت المسلمين، وألقت الرعب فى قلوب الناس، فانتهز زيادة الله فرصة قدوم هذا القائد ليثأر للمسلمين، وفعلًا أعد حملة ضخمة بقيادة قاضى القضاة (الإمام أسد بن الفرات)، أبحرت فى ربيع الأول سنة ٢١٢هـ (٨٢٧م) حتى بلغت الجزيرة، فاستولت على مدينة مازورة، ثم حاصرت مدينة سرقوسة، وحينئذ توفى القائد ابن الفرات حول أسوارها مع مجموعة من رجاله، فتولى القيادة محمد بن الجوارى الذى استطاع أن يفك الحصار ويدخل سرقوسة، وبعد موت ابن الجوارى تولى القيادة زهير بن غوث واحتل العاصمة باليرمو، وبذلك سقطت الجزيرة فى أيدى المسلمين وأسندت ولايتها إلى أحد الأمراء الأغالبة، وهو أبو الأغلب إبراهيم ابن عبد الله.

ولما كان المسلمون يومئذ قد بلغوا فى الحضارة شأنًا عظيمًا، فقد تسربت إلى صقلية بعد فتحها معالم الثقافة والفن الإسلامى، فأضحت بذلك معبرًا مهمًّا لنقل الفكر الإسلامى والعربى إلى أوربا عن طريقها، وذلك على حد تعبير الموسوعة لاروس (المجلد ١٤ / ٦٧٩) فقد جاء بها أن صقلية مدينة للعرب بأسمى ما عرفته من تقدم زراعى، فالقطه وقصب السكر والفستق وغيرها لم تعرفه الجزيرة إلا باحتلال العرب، كما تحدث ابن حوقل عن الجزيرة إبان حكم المسلمين لها، وأشاد بمساجدها الكثيرة، وتحدث عن معلمى الصبيان ومؤدبيهم.

وهكذا بقيت صقلية فى حوزة المسلمين حتى اغتصبها النورمانديون عام ١٠٩٠م، بيد أن الحضارة الإسلامية ظلت ماثلة بها بعد إجلاء المسلمين عنها ردحًا من الزمن، فيذكر التاريخ أن حاكمها روجر الأول (المتوفى عام ١١٠١م) كانت

مظاهره عربية، فقلد المسلمين المناصب القيادية، وشمل العلوم العربية برعايته، كما قرب إلى بلاطه فلاسفة الشرق، واعتمد على المسلمين فى جيشه، كما كان متسامحًا تجاه الأديان بالجزيرة، واحتفظ بنظام الإدارة الإسلامى، حتى لقد بقيت صقلية هكذا عربية المظاهر شرقية السِّمات نحوًا من قرن من الزمان بعد انتهاء الحكم الإسلامى منها، ولم يقتصر الأمر فى هذا على الإدارة ونظام الحكم، بل امتد ليشمل الحياة للشعب فى أغلب أحواله، فقد زار ابن جبير المؤرخ صقلية فى القرن الثانى عشر الميلادى، فرأى الأزياء الإسلامية شائعة بين سكان الجزيرة، وقد كان روجر الثانى نفسه يلبس الجبة المطرزة بالحروف العربية، كما رأى ابن جبير النساء النصرانيات يرتدين أزياء المسلمات (رحلة ابن جبير ٣٣٣).

وعلى هذا فتعتبر صقلية من المعابر والمنافذ المهمة لوصول الحضارة العربية الإسلامية إلى أوربا.

فتـــح مالطة

لم يقف الأغالبة عند الاستيلاء على صقلية، وإنما توالت هجماتهم على بعض الجزر الأخرى فى البحر المتوسط، فقد اتجهوا نحو جزيرة مالطة ابتداء من سنة ٨٢٤ م، وظلوا يناوشونها حتى تم لهم الاستيلاء عليها سنة ٨٦٩م، وقد ظل حكمهم لها حتى انتزعها منهم الفاطميون عام ٩٠٩م، وبقى هؤلاء بها حتى اغتصبها منهم النورمانديون عام ١٠٩٠م.

كذلك كان للأغالبة الفضل فى أن يكون للجالية الإسلامية نفوذ فى كل من جزيرة كورسيكا وسردينيا وكريت منذ مطلع دولتهم.

المسلمون فى جنوب أوربا

لقد قام بنو الأغلب بغارات ناجحة على جنوبى فرنسا وإيطاليا، وذلك خلال القرنين التاسع والعاشر الميلادى، فاحتل المسلمون ساحل بروفانس الفرنسى عام ٨٩٠م، وبقوا به حتى سنة ٩٧٥م، كما تمكن الأغالبة عن طريق صقلية من احتلال

بعض شواطئ إيطاليا، مثل برنديزى عام ٨٣٦م، ونابولى عام ٨٣٧م، وكالبريا عام ٨٣٨م، وتورنتو عام ٨٤٠م، وبازى عام ٨٤١م، وبنفنتو عام ٨٤٢م، كما هوجمت روما عام ٨٤٦م، كما قام الفاطميون بمهاجمة جنوة سنة ٩٣٤هـ وكلها فتوحات لم يستمر الوجود العربى فى بلادها طويلا، على أن أطول فترة قضوها هى التى كانت بمدينة تورنتو بإيطاليا، فقد استمروا بهذه المدينة من سنة ٨٤٠م إلى ٨٨٠م.

المراجع

١- تاريخ الإسلام السياسى والثقافى والاجتماعى.
للدكتور / حسن إبراهيم، الطبعة الرابعة ١٩٨٠م، القاهرة.
٢- العالم الإسلامى فى العصر العباسى.
للدكتور / حسن أحمد محمود، والدكتور / أحمد إبراهيم الشريف.
دار الفكر العربى، الطبعة الخامسة ص ٤١٩.
٣- العبر لابن خلدون.
طبعة مصر ـ بولاق ١٢٨٤هـ.
٤- تاريخ المغرب فى العصر الوسيط.
للدكتور/ السيد عبد العزيز سالم (نشر مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية).
٥- الروض الهتون، فى أخبار مكناسة الزيتون.
لأبى عبد الله محمد بن غازى العثمانى (المطبعة الملكية ـ الرباط ١٩٦٤م).
٦- جغرافية المدن المغربية، للدكتور/ إحسان عوض.
مطبوعات المركز الجامعى للبحث العلمى ـ الرباط ١٩٦٤م.
٧- معيار الاختيار، فى ذكر المعاهد والديار، لابن الخطيب السلمانى.
تحقيق ودراسة للدكتور/ محمد كمال شبانة، طبع وزارة الأوقاف الرباط ١٩٧٦م.
٨- المغرب عبر التاريخ. للدكتور/ إبراهيم بركات.
نشر دار الرشاد ـ الدار البيضاء، بالمغرب ١٩٧٨م.
٩- العالم الإسلامى فى العصر الوسيط.
للدكتور/ حسن أحمد محمود، والدكتور/ أحمد الشريف. دار الفكر العربى، ط ٥.
١٠- قيام دولة المرابطين، للدكتور/ حسن أحمد محمود.
نشر مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٥٧م.

مطـابـع آمـــون

٤ ش الفيروز متفرع من إسماعيل أباظة

لاظوغلى - القاهرة

تليفون : ٢٧٩٤٤٥١٧ - ٢٧٩٤٤٣٥٦

هذا الكتاب

يقدم عرضًا تاريخيًّا موجزًا لبلاد المغرب العربي في العصر الإسلامي بأقسامها الثلاثة: المغرب الأقصى (مراكش)، والمغرب الأوسط (الجزائر)، والمغرب الأدنى (تونس).. موضحًا الدول المختلفة التي تعاقبت على حكمها منذ الفتح الإسلامي وحتى العصر الحديث، والمظاهر الحضارية التي خَلّفتْها كل دولة بهذه البلاد، والصلات الخارجية لهذه الدول بأوروبا، والتي لا شك قد دعمت النفوذ العربي في العالم.. وبهذا صار الكتاب موردًا سهلًا لكل قارئ عادي أو متخصص يرغب في معرفة تاريخ هذا الجزء العزيز من وطننا العربي في العصر الإسلامي.

* ومؤلف الكتاب هو الأستاذ الدكتور «محمد كمال شبانة»، أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعات مصر والسعودية والمغرب، وأحد رواد كتابة التاريخ الإسلامي. وتتميز كتاباته كلها بتجاوزها نطاق الأكاديمية الجاف الضيق إلى ميدان التثقيف العام على اتساعه وبساطته. ومن أشهر كتبه: «الإسلامُ فكرًا وحضارةً»، و«الدو[ل] العربية الإسلامية»، و«الأندلس: دراسة تاريخية حضارية»، و«مصر الإسلامية».. وغير ذلك من مؤلَّفات كان لـ «دار العالم العرب[ي]» شرف طبعها ونشرها.




6 224000 667047